

الخطر الشيوعي
في
بلاد الإسلام

بقلم
الأستاذ
الدكتور محمد شامة

الصراع الفكري هو إحدى ظواهر المجتمع الإنساني ،
وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو إتجه وجهة بناءة ، ولم
ينحرف إلى حافة التدمير والتخريب . . .

وينبغي ألا يقابل بالإستنكار والوعيد ، بل بمحاولة فهم
آراء المخالفين ، والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خدع
بالشعارات البراقة ، والأخذ بيده إلى الطريق المستقيم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى
هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

(صدق الله العظيم)

الاهـداء

إلى أرواح الشهداء الذين سقطوا في الميدان بأيدي
الماركسيين ، وأعوانهم الذين اغتصبوا الحكم في العالم
الإسلامي .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ورفرفت راية الإسلام على مملكتي كسرى وقيصر ، دخل الناس في دين الله أفواجا ، يحملون معهم أفكارهم وعقائدهم السابقة ، لأنهم لم يعيشوا قبل الإسلام في فراغ عقلي ، فقد كان لهم تراث ديني - أيا كانت قيمته في نظر الإسلام - وأفكار فلسفية حول طبيعة الوجود ، لا تتفق مع تعاليم الإسلام .

لم تختلف هذه الأفكار الدينية والفلسفية عقب الفتح مباشرة - ولو حدث لكان ذلك نقضاً لسنة التطور والتحول الفكري في المجتمعات الإنسانية - بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية التي اشتعلت في المجتمع الإسلامي ، وظلت نارها متأججة شرقاً وغرباً عدة قرون ، مما دفع كثيراً من العلماء آنذاك إلى دراسة الفكر الأجنبي واستيعابه ، ليكون أقدر على الدفاع عن الإسلام ضد هذا الفكر الدخيل ، إذ كلما ازدادت معرفة العالم بما عند الخصم من أفكار وحجج وبراهين ، كلما كان دفاعه مقبولا عقلياً ونفسياً واجتماعياً ؛ فالغزالي - على سبيل المثال - لم يكن ليستطيع أن يكتب تهافت الفلاسفة - وهو كتاب له وزنه في الأوساط الفكرية - لو لم يدرس الفلسفة دراسة فهم واستيعاب وإحاطة .

فالصراع الفكري هو إحدى ظواهر المجتمع الإنساني ،
وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو اتجه وجهة بناءة ، ولم ينحرف
إلى حافة التدمير والتخريب .

ولا يخلو منه مجتمع بشري ، لأنه عصب وجوده ، والقلب
الذي يدفع بدم الحياة في شرايينه ، ولذا ينبغي ألا يقابل بالاستنكار
والوعيد بكبته ، والقضاء على من يحمل رايته ، بل بمحاولة فهم
آراء المخالفين والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خدع بالشعارات
البراقة ، والعبارات الرنانة ، والاختذ بيدهم إلى الطريق المستقيم .

تختلف طبيعة الصراع الفكري موضوعاً وأسلوباً من عصر
لآخر فهي :

- تتلون تبعاً لمنابع الثقافة .
- وتشكل تحت تأثير تيارات الفكر الأجنبي .
- وتهتدأ أو تثور - إلى درجة التطاحن - نتيجة لعوامل سياسية
 واجتماعية .

ومن لم يدرك هذه الطبيعة ، فلن يستطيع القيام بمهمة الداعية ،
الذي يتصدى للفكر الدخيل ، فيبين جوانبه السلبية ، وآثاره
المدمرة في المجتمع ، لأنه إذا لم يقف على دقائقه عجز عن مقاومته .
ولهذا رأيت - حين طلب مني أن أكتب بحثاً عن « الخطر
الشيوعي في بلاد الإسلام وكيفية مقاومته - أن أبين من الناحية
النظرية :

- منابع فلسفة « ماركس » .
- وطبيعة هذه الفلسفة .
- ومن الناحية التطبيقية :
- التناقض بين الدعاية الشيوعية ، وطبيعة النظام الماركسي في البلاد الشيوعية .
- أساليب ومناورات الاتحاد السوفيتي - بوصفه زعيم المعسكر الشيوعي - في العالم الإسلامي مع الحكومات ، وبين صفوف الجماهير .
- والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل .



تمهيد

يمتد تاريخ الإلحاد في المجتمعات البشرية رأسياً وأفقياً ؛ فمئذ أن بدأ الإنسان يفكر فيما حوله من مظاهر الطبيعة ، كان الإلحاد أحد الإمكانيات العقلية ، التي تبناها حين أراد أن يفسر أسرار الكون ، ولم يقتصر هذا التصور - تجاه الكون - على طبقة معينة من طبقات المجتمعات الإنسانية ، إذ ظهر الإلحاد عند الإنسان البسيط ، الذي لم ينل حظاً وافراً من الثقافة ، كما اعتنقه فريق من كبار الفلاسفة والمفكرين في كل عصر وجيل .

لا يخلو عصر أو مجتمع من وجود ملحدين - سواء كانوا منكرين لوجود الله أو مشركين معه في العبادة إلهاً غيره - تنكروا للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فأنكروا وجود الله أو أشركوا معه إلهاً غيره ، إلا أن هذا التيار الإلحادي لم يأخذ شكل ظاهرة اجتماعية في أي مجتمع إلا في الفترات التي يتعرض لها المجتمع لتيارات أخرى ، تضعف الوازع الديني عند الناس ، وتخلخل الاعتقاد في الله الواحد ، فيقع الأفراد - زرافات ووحدانا - صرعى السموم التي يبيثها الملحدون - وهم قلة - في المجتمع ، مستخدمين في ذلك الإمكانيات المادية والبشرية التي سيطروا عليها في لحظة غفل فيها أرباب التوحيد عن القيام بما يجب عليهم نحو ربهم ومجتمعهم ، الذي يؤمن بالله الواحد القهار .

عندما يصبح الاتحاد ظاهرة اجتماعية ، ويطغى صفيـر الملحدين على صوت المؤمنين في المجتمع ، وتشـد الوطأة على من يتمسك بعقيدة الإيمان بالله ، ويختلط الأمر على أصحاب العقول ، فيحسبون أن الأرض وما عليها ومن عليها ستظل في قبضة زعماء الاتحاد ، ومن يدور في فلـكهم من المنافقين المرجفين في جنـبات المجتمع ، والدجالين أصحاب المنافع المادية ، الذين رضوا بالحياة الدنيا وما فيها من متاع وشهوات ، فباعوا دينهم بثمن بخس ، عندئذ يرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليطمئن المستضعفين المتمسكين بدينهم أن الله لن يضيع جهادهم في سبيله ، ويبين للـحيارى الطريق المستقيم ، ويدعو أرباب الكفر إلى الاقلاع عن غيهم وفسادهم ، والانضمام إلى فريق الإيمان الذي يعبد الله وحده .

كان من الطبيعي أن يشتد الجدل بين رسل الله وبين الملحدين ، لأنهم رأوا أن هذه الدعوة خطر على ملكهم وجاههم ، وأنها ستضع حداً لاستغلالهم ؛ إذ تحرم عليهم أكل أموال الناس بالباطل ، وتسوي بينهم وبين الآخرين في الحقوق والمعاملات . وقد قص القرآن كثيراً من صور الحوار التي دارت بين رسل الله وقومهم ، منها قوله تعالى :

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَتَأْتِيَ لَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)^(١).

(١) الشعراء ٢٣ - ٢٩ ..

وقوله :

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)^(١) .

وقوله :

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)^(٢) .

وقوله :

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبِّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)^(٣) .

وقوله :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ...)^(٤) .

إلى غير ذلك من الآيات ، التي توضح أن الإلحاد شغل حيزاً كبيراً في الفكر البشري ، وأنه كان من أخطر الأمراض الاجتماعية التي أرسلت الرسل لمعالجته واستئصاله ، وأنفقوا معظم وقتهم في الجهاد من أجل القضاء عليه لاستئصاله ، أو إضعافه بحيث

(١) الجاثية ٢٨ .

(٢) يس ٧٨ - ٧٩ .

(٣) التغاين ٧ .

(٤) الحج ٥ .

لا يكون ظاهرة اجتماعية تهدد كيان المجتمع القائم على الإيمان بالله .

انقطع خبر السماء بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد يرسل الله رسولا أو ينزل كتاباً ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ، ولن يأتي نبي بعده ، والقرآن هو آخر كتاب ينزل من عند الله ، وقد حفظه الله من الضياع أو النسيان « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .^(١)

فاذا ظهر الاتحاد في المجتمع ، وأصبح ظاهرة اجتماعية ، فلا يجوز لنا - نحن المسلمين - أن نتقاعس عن محاربته والقضاء عليه ، بحجة أن الله سيتولى ذلك بارسال رسول مؤيد بمعجزات ، كما حدث قبل الإسلام . . . لا لن يحدث هذا ، لأن دستوره بين أيدينا ، فهو سلاحنا الذي نحمله في جهادنا ضد التيار الإلحادي ، فعلينا أن نعد أنفسنا لهذه المعركة .

كيف ذلك . . . هذا هو ما سنبينه في هذا البحث .

طبية الاتحاد في العصر الحديث

للإتحاد تاريخ طويل حافل ، وله صور كثيرة متنوعة ، غير أن أوسع معنى يعزى إليه هو أنه إنكار للتصور السائد عن الله ، أو عن المعتقدات الدينية ، ولما كان هذا التصور يمكن أن ينتقل

(١) الحجر ٩ .

من عصر إلى آخر ، لم يكن من المستبعد أن يختلف معنى الإلحاد باختلاف العصور ، فأحياناً يتأثر المنكر خفية بادراك أن النظرة الشائعة عن الله غير جديرة بالدلالة على أعلى قيمة ، أو بأنها لا تتفق وإحساسه بالكرامة الإنسانية ، ولا يختلف هذا الموقف كثيراً عن دعوة من يرتدون رداء الإصلاح الديني ، الذين يريدون تصحيح تصور الفكرة الدينية ، باستبعاد ما أدخل عليها من نظرة مضللة عن الله ، وتنقية العبادات من البدع والضلالات . غير أنه أطلق على هذا التيار إلحاد أيضاً ، فقد أطلقت كلمة « ملحد » على « انكساجوراس » ، لأنه انتقد الفكرة الدينية اليونانية عن الآلهة ، وأطلقت أيضاً على تلاميذ المسيح عليه السلام ، لأنهم أنكروا تعدد الآلهة عند الوثنيين ، وعلى (اسبينوزا) الذي ربط بين الله والعلم على نحو مخالف للفكرة الدينية التقليدية ، غير أن استخدام هذه الكلمة لم يكن مناسباً في مثل هذه المواقف ، لأنها تتعلق بمسألة النزاع بين التصورات المختلفة عن الله ، ولا تنطوي على إنكار تام للآلهة ، إلا أن القرن التاسع عشر شهد مولد مذهب في الإلحاد ، مذهب كامل التكوين ، يرمي إلى استبعاد الله بلا قيد ولا شرط من معتقداتنا .

وكان من النادر - فيما سبق من عصور - أن يعتنق الإلحاد علانية مفكرون بارزون ، إذ كان ينظر إليه على أنه موقف هدام . أما في خلال الفترة التي أعقبت الفيلسوف الألماني « هيغل » ، فقد اعتنقه جهاراً عدد من زعماء الفكر ، الذين أضفوا عليه نوعاً من التوقير الذهني ، بل من التداول الشعبي أيضاً ، وقد نجحوا في

هذا بأن ربطوا بين الالحاد وبين بعض الاتجاهات الرئيسية في الحياة العلمية والثقافية والأخلاقية ، وبدلاً من أن يقف الالحاد موقفاً سليماً عقيماً ، أضحى مقوماً من مقومات الاتجاه الإنساني في المجتمع الحديث . ومن الجلي أن مثل هذا الانقلاب في الأوضاع لم يكن من صنع حفنة قليلة من الفلاسفة ، بل أننا لنجد داخل التراث الفلسفي نفسه تمهيدات طويلة المدى للالحاد في بعض جوانب مذهب الشك وعصر التنوير وغيرهما من التيارات ، وكانت هناك ظروف مشجعة قوية في المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية .

الصراع بين العقل والدين :

أنسابت روح العقلية الإسلامية في وديان أوروبا من جهتين ، من الأندلس حيث قامت دولة إسلامية على أرض أوروبية ، فاتصل المسلمون بسكان المناطق الأوروبية الأخرى اتصالاً مباشراً ، ومن فلسطين عن طريق الصليبيين الذين جاؤا إلى الشرق غازين ، فارتدوا على أعقابهم ، وليس معهم سوى البذرة التي أنبتت الثورة على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تعتبر :

– أن البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى هم المصدر الوحيد للمعرفة .

– وأن لهم وحدهم حق تفسير الكتاب المقدس .

– وأن لتفسيرهم وآرائهم الدينية قداسة الكتاب نفسه ، فهو كتاب مقدس أيضاً .

– وأن الاعتراف بالخطأ ، وصكوك الغفران من رسوم العبادة المسيحية .

ثار العقل الأوروبي على هذه التعاليم ، فانطلق يبحث عن مصدر آخر للمعرفة ، ولكنه لم يهتد إلى مصدر له خاصية الثبوت والدوام ، كذلك لم يستطع المفكرون المسلمون آنذاك – في القرن السادس عشر الميلادي وما بعده – أن يقدموا له عوناً فكرياً يقنعه ، ويأخذ بيده ، ليوصله إلى هدفه ، دون التخبط في ظلمات سراديب الضلالات البشرية ، لأن المجتمع الإسلامي كان يمر في ذلك الوقت بمرحلة الضعف ، فكان عاجزاً فكرياً عن القيام بهذا العمل .

لم يهتد العقل الأوروبي إلى مصدر آخر للمعرفة ، فظل يتخبط متنقلاً من مصدر إلى آخر ، دائراً حول ما عرفته البشرية في تاريخها الفكري من مصادر اختلفت الآراء فيها ، تلك المصادر هي :

– الدين

– العقل

– الحس أو الواقع .

فعندما بدأ ظهور الثمار الفكرية ، للحروب الصليبية ، ظهرت حركات فكرية تعارض الكنيسة ، فثار « مارتن لوثر » على تعاليم البابا ، والكنيسة الكاثوليكية ، فحارب صكوك الغفران ، وانتقد فهم الكنيسة لكثير من المسائل العقديّة ، فطالب بالحرية في تفسير الكتاب ، وجعل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة .

تعرضت الكنيسة للجدل الفكري بعد حركة «لوتر»، وأصبحت المسيحية موضوع نقاش بين المذاهب الفلسفية ، ولكن ليست المسيحية كدين ، بل مسيحية الكنيسة الكاثوليكية ، ولهذا كان الدين هو موضوع الصراع العقلي الأوروبي ، وأصبح البحث عن مصدر المعرفة ، هو المسألة الأولى في الفكر الفلسفي .

سيادة العقل :

كانت التعاليم الدينية - وهي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية - سائدة في العصور الوسطى في مجال توجيه الإنسان في كل ميادين الحياة ، سلوكاً ، وفهماً للطبيعة حتى القرن الخامس عشر حين قام « لوتر » بحركته ، وبعد ذلك تعرضت هذه التعاليم للجدل والنقاش ، غير أن الوحي ظل يعتبر كمرجع أخير للمعرفة - على اختلاف في تحديد تعاليمه - حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، حين بدأ ما يسمى « عصر التنوير » في تاريخ الفلسفة الأوروبية ، وهو عصر له طابع خاص ، فهو يتميز عن العصور السابقة ، ويختلف عما تلاه ، فله طابعه المشترك في الفكر الألماني والانجليزي والفرنسي ، واشتهر من فلاسفة هذا العصر :

في المانيا : « كريستيان وولف Christian Wolff » .

و « لسنج Lessing » .

وفي فرنسا : « فولتير Voltaire » و « بايل Bayle » و « لامترى

« La Mètrie » .

أما الطابع الفكري الذي تميز به ، فهو وجوب سيادة العقل - كمصدر للمعرفة - على غيره .

وغيره الذي ينازعه « السيادة » في ذلك الوقت هو : الدين ، أي المسيحية الكاثوليكية .

نشأت في عصر التنوير خصومة فكرية بين الدين والعقل ، وكان الاتجاه الفكري يميل إلى إخضاع الدين للعقل ، ولهذا أطلق على هذه الفترة فترة سيادة العقل ، مقابلة للفترة السابقة فترة سيادة الدين .

وليس معنى هذا أن الفترتين منفصلتين تمام الانفصال ؛ فلم تخل فترة سيادة الدين من مفكرين ، وقفوا بجانب العقل . كذلك لم تخل فترة سيادة العقل من أنصار للدين ، فنى مثلا « بلانس » ينقد سيادة « العقل » كمصدر وحيد للمعرفة ، ويذكر :

« إن فلسفة التنوير » أخطأت عندما قصدت إلى أن العقل - وحده ومن نفسه - يمكن أن يوجد « الحقيقة » وينظم الجماعة ... وأخطأت كذلك عندما أرادت أن تقيم صورة العلاقة المشتركة بين الأفراد ، على ما بينهم من ميل ومحبة إنسانية ، دون ما يربطهم من قبل من رباط اللغة ، والدين والتقاليد ، وما أشبه ذلك من الروابط الأخرى السائدة . »

ويستطرد (بلانس) فيذكر أن :

« كل حياة عقلية للإنسان هي حصيلة التقاليد الاجتماعية ، واللغة بالذات . . . فاللغة هي وحي الله للإنسان ، و (الكلمة

الالهية) هي مصدر (الحقيقة) . . . والمعرفة الإنسانية هي دائماً قسم من هذه الحقيقة الالهية . . . وتنمو من الضمير الذي بداخلها ، والذي يجعل للعام اعتباراً خاصاً بأنفسنا . و « الكنيسة » هي حاملة « الكلمة الالهية » ، فتعاليمها هي « العقل العام » الذي هو منحة من الله ، والتي تشبه شجرة نمت على مر الزمن ، ونضجت بها كل المعارف الإنسانية الخالصة من الزيف . ولهذا يمكن أن يعتبر « الوحي » وحده أساساً « للجماعة » ونظامها ، كما يعتبر أساساً « للمعرفة » و « الحقيقة » معاً . .

كان الصراع في هذه الفترة صراعاً بين العقل والكنيسة ، لا بين العقل والدين بمعناه العام ، ومن الأسباب الرئيسية التي ساعدت على ظهور هذا الصراع ، موقف الكنيسة من الحياة الأوروبية . سواء في مجال التوجيه والبحث ، أو في مجال السياسة ، أو في نطاق العقيدة . ومما زاد في أواره ، أسلوب رجال الدين – والمدافعين عن العقيدة من الفلاسفة – في مجال البحث والدراسة في الجامعات ، ذلك الأسلوب الذي بعد عن الواقع ، وحصص نفسه في مناقشات ، ومماحكات لغوية . ويعترف الكاردينال « نيقولا دو كوسا » – وهو أحد فلاسفة الكنيسة – بذلك ، فهو يرى أن الفلسفات ، وعلوم اللاهوت السائدة في الجامعات – في ذلك الوقت – قد فقدت اتصالها بالعالم الواقعي ، واستبدلت بالبحث عن الحقيقة شقشقة لفظية حاذقة .

لا نريد أن نخوض في الأبحاث الفلسفية ، التي امتدت من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، ابتداء من

مذهب الشك - الذي ظهرت بوادره عند « ميشيل دي مونتاني »
(١٥٣٣-١٥٩٢ م) وتألق عند ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠ م) -
حتى أخلاقية (كانت) (١٧٢٤-١٨٠٤ م) ، تجنباً للاستطراد ؛
لأن غرضنا الوصول إلى جذور الشيوعية ، من أقرب طريق ،
يعطينا صورة متكاملة عن منابع ذلك المذهب الالحادي .

ولذا سنتناول آراء الفلاسفة ، الذين خاضوا حلبة الصراع بين
العقل والكنيسة ، وكانت لآرائهم صلة بمبدأ « ماركس » في دعوته
للشيوعية .

ظهر مبدأ النقيض في الفلسفة الألمانية ، واعتبر من المبادئ
الضرورية الذي لا يقبل الرفع ، لأن الفلاسفة الألمان رأوا أنه
يتبع طبيعة العقل فهو خاصة من خواصه ، ومن أجل هذا كان
العقل حقيقياً ، ثم بالتالي كان المبدأ نفسه حقيقياً .

استخدم هذا المبدأ « نيتشة » و « هيجل » و « فويرباخ » ثم
اعتمد عليه « ماركس » في حتميته التاريخية . وسنعرض ملخصاً
لتصور هؤلاء الفلاسفة « لمبدأ النقيض » ، ثم نبين كيفية استخدام
« ماركس » له في فلسفته الشيوعية .

فيشته :

يرى فيشته في استخدامه لمبدأ النقيض ، أن الانسان إذا تصور
نفسه .. أي إذا « أنا » تصورت « أنا » ، نشأ عنه أن « أنا » هو « أنا » .
ونشأ عنه أيضاً : ما « ليس أنا » غير « أنا » .

– فهنا : « أنا » وهنا أيضاً « ليس أنا » .

– ولكن وجود « ليس أنا » منطوق في الوجود الحقيقي لـ « أنا » .

– وإذن « أنا » باعتبار أنه ينطوي في ذاته وجود « ليس أنا » هو جامع للشيء ومقابله .

ويستلزم منطق « مبدأ النقيض » على هذا النحو أن :

– العقل مستقل تماماً عن غيره ، وموجود من أجل نفسه ، ووجوده هو وجوده هو ، لا وجود غيره .

– ماهية العقل تتضح إذن من العقل نفسه ، وليست مما هو خارج عنه ، مغاير له . . . إذ لو توقفت ماهية العقل على غيره الخارجي عنه ، لكان معناه أن « ليس أنا » هو نقطة البداية ، وفي ذلك الغاء لـ « أنا » ، فتوقف العقل في توضيح ذاته على غيره ، دون توقفه على ذاته ، نفي للعقل نفسه ، قبل أن يصل إلى غيره ، لأنه لا معنى لوجود « ليس أنا » ، إلا نفي وجود « أنا » ، أي نفي العقل نفسه .

كما أن منطق هذا المبدأ – على نحو ما يستخدم في « تصور الإنسان لنفسه » – لا يجعل إدراك عالم الأشياء ، من إنتاج قوة التصور والفكر لدى الإنسان فحسب . . . بل يؤكد حرية الإنسان في هذا الإدراك ، كما يؤكد حرите في العمل على العموم . ويؤكد بالتالي أنه غير مجبر لغيره ، ولا مضطر في عمله ، إذ هذه الحرية من

تفكير الإنسان ، لا يحددها الشيء الخارج عنه ؛ هي من العقل الذي يحدد غيره ، وهو الشيء الخارج عنه .

وبهذا وصل فيشته إلى :

- استقلال العقل في الوجود عن الجسم ، أو أي كائن آخر ، وإلى سيادته على نفسه ، وعلى غيره ، وهو العالم الخارجي عنه .
- ثم إلى حرية الإنسان في العمل حرية تامة ، لا يشوبها شبه تحديد من غير الإنسان نفسه .
- واخير إلى تبعية عالم الأشياء في تصوره إلى العقل .

هيجل :

اشتغل « هيجل » بالقضايا الفلسفية ، التي ورثها عن أسلافه الألمان ، فتصور أن العالم الحديث ، يعاني من اغتراب ذى شعب ثلاث : اجتماعي ، وديني ، وفلسفي . واتضح له أن أساس المتاعب يكمن في فكرة متكافئة عن الله ؛ ف « يصف المفهوم اليهودي » بأنه موضوعي تماماً ، ويعني بذلك ، أنه مفهوم يجعل الله والإنسان غريبين ، أحدهما عن الآخر تمام الغربة ، كأنهما موضوعين ، عند القطبين المتعارضين للعالم . وهذا الدين يعلن أن الإنسان لا قيمة له في حد ذاته ، وأنه لا يستحق أن تقوم بينه وبين الله إلا علاقة عبودية خارجية . . . ويصور البطارقة اليهود بأنهم جسدوا مثلهم الأعلى في السيطرة الطبيعية ، في كائن لا متناه ، وأن

يكن واقعياً وجزئياً ، هو الله الذي يتحكم في العالم ، وبخضوع الإنسان لهذا « الموضوع الذي في الأعالي » يضمن لنفسه سيطرة غير مباشرة على القوى الطبيعية .

كما انتقد « هيجل » المسيح نفسه ، والكنيسة المسيحية لإصرارهما على شخصيته - أي الله - الإلهية الفريدة ، وعلى ملكوته بوصفه مجتمعاً منعزلاً عن العالم .

ثم يعرف الدين « بأنه سمو الإنسان بنفسه من الحياة المتناهية إلى الحياة اللامتناهية ، وبأنه طموح الإنسان للعلو على نفسه ، لكي يصبح إلهياً . ويرى أن الحياة اللامتناهية ، من حيث طبيعتها لا تفرق عن الحياة المتناهية ، وإنما تشتمل على هذه الحياة في داخلها ، فهي الكل المطلق الحي ، الذي يحتوي في داخل ذاته على كل الأضداد ، بين المتناهي واللامتناهي ، الجماد والحي ، الموضوع والذات ، الفكر والواقع » .

لم ينكر (هيجل) وجود الله ، وإن أطلق عليه (المطلق) ، ولم ينكر مبدأ الوحي كمصدر أخير (للحقيقة) ، وإنما أنكر التصورات التي تضع حداً فاصلاً بين الله والانسان .

نظم « هيجل » فلسفته حول نظريته في « المطلق » بوصفه روحاً ، وقد أعطى لكلمته « روح » معنى مذهبياً متميزاً ، ودافع عن تطبيقها على المطلق ، فاستعمل في ذلك « مبدأ النقيض » ؛ فقد تصور في مجال الفكر أن هناك فكرة مطلقة أسماها « العقل المطلق » ، ولهذا « العقل المطلق » وجود ذاتي أزلي قبل خلق الطبيعة ،

وقبل خلق العقل المحدد . هذا العقل المطلق هو (الله) ومنه تنبثق الطبيعة ، وهو يغيرها تماماً ؛ إذ أنها مقيدة محددة ومتفرقة ، بينما « العقل المطلق » واحد وحدة مطلقة عن كل قيد .

وبوجود « الطبيعة » ظهرت - أو انتقلت - « الفكرة » ، التي في « العقل المطلق » غير المحدد ، فيما وجوده مقيد محدد . فالطبيعة هي خروج « الفكرة » من دائرتها الأولى ، ومن أجل ذلك كانت ضرورة وصدفة ، وليس فيها حرية واختيار . وتعتبر لهذا مقابلاً ، ونقيضاً للفكرة في « العقل المطلق » .

- وإذا كان « العقل المطلق » دعوى .

- « فالطبيعة » عندئذ مقابل الدعوى .

والفكرة انتقلت بذلك من المطلق إلى المقيد ، أو من النقيض إلى نقيضه . وإذن ، الفكرة من حيث هي فكرة ، انطوت على نقيضها حتى الآن ، ولكن الفكرة في « الطبيعة » تسعى من جديد لتكسب الوحدة الأولى - التي كانت في العقل المطلق - ، بعد أن افتقدتها في تفرق الكائنات فيها ، وتسعى لتحصيلها ثانية ، وتحصيلها عندئذ هو « العقل المجرد » .

« فالعقل المجرد » هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها ، وهو عندئذ جامع الدعوى ، ومقابل الدعوى .

« الفكرة » - في نظر هيجل - انتقلت من ذاتها ك « عقل مطلق » إلى نقيضها وهو « الطبيعة » ك « عقل مقيد » ، ثم انتقلت

من النقيض إلى جامع ، يلتقي فيه الشيء ونقيضه ، وهو « العقل المجرد » .

و «العقل المجرد» - الذي هو جامع الدعوى ومقابل الدعوى - ، هو العقل في صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، سواء ما يأخذ منه طريقه إلى الظهور ، أو ما يظهر منها بالفعل ، وهذا العقل يتمثل في القانون ، والأخلاق ، وفي الفن ، والدين ، والدولة ، والجماعة والفلسفة .

وإذن « العقل المجرد » الذي يتحقق في أي واحد من هذه القيم العامة المذكورة جامع للمقابلين .

- جامع للفكرة في العقل المطلق ، وهو « الله » .

- ولل فكرة في العقل المقيد ، وهو « الطبيعة » .

ذلك أنه ليس له إطلاق « العقل المطلق » ، ولا تحديد « عقل الطبيعة » ، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة ، وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ، ولذا يعتبر جامع الدعوى ، ومقابل الدعوى .

ف فكرة الألوهية ظهرت ، وتجلت في الطبيعة المفرقة المحددة ، واجتمعت من جديد في « العقل المجرد » .

وبقدر ما تبعد الطبيعة عن الله ، يقترب « العقل المجرد » منه ، و « العقل المجرد » إذن يمثل الله أكثر مما تمثله « الطبيعة » . وهو بمثابة نوع للعقول الفردية المنشورة في الطبيعة ، ويعلوه « العقل » المطلق « وهو الله » .

على الرغم من أن « هيجل » وصف فلسفته هذه ، بأنها « حكمة الله » ، وبأنها « خدمة الله ومعرفته » ، بل بأنها « لاهوت » ، وكان ما يقصده من هذه الأسماء ، هو أن ما يدركه العقل الإلهي والديني ، ما هو إلا مجرد إحياء بالروح المطلقة ، على الرغم من هذا فإننا نرى أنه انتقص من هيبة الله وعظمته ، وبأنه خلعه من عرشه ، وأنزله من سمائه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وأن الملحدن الذين جاءوا من بعده ، اتخذوا « مطلقه » نقطة انطلاق لفلسفتهم اللاحادية .

فوير باخ :

إذا تجاهلنا منهج « هيجل التفصيلي » ، فانه يمكننا أن نعه من أنصار مذهب الألوهية ، لأنه لم ينكر وجود الله إنكاراً تاماً - وإن كان قد حوله إلى « عقل مطلق » - ولم ينفه من الفلسفة نفياً مطلقاً ، ولذا تعامل فلسفته ، على أنها تراث مشترك لكل موقف فلسفي لاحق ، يدفع عن الاتجاه الذي يعترف بالألوهية .

غير أن من المفارقات التي اتسم بها التفكير اللاحق لـ « هيجل » عن الله ، هي الظهور السريع للفلسفات الملحدة ، والمتناهية ، والشخصية . ولما كانت هذه الحركات الجديدة ، قد جاءت في أعقاب نزعة مثالية ، مجدت الإلهي واللامتناهي ، واللاشخصي ، فيبدو أنها تنطوي على انقلاب تام في الاتجاه السابق ، وأنها تضرب - بحق - مثلاً أصيلاً على الانفصال التاريخي . ومهما يكن الأمر ، فان الفحص الدقيق يكشف عن أن هذه المفهومات

الجديدة ، تعتمد في شطر منها على حركات عقلية أخرى ، ظهرت في القرن التاسع عشر ، وتعتمد في شطر آخر ، على تطوير بعض النغمات المتصارعة في فكر « هيجل » نفسه . فالجناس اليساري من الهيجليين قد شجعه - بكل تأكيد - الأزدواج الذي أحاط بالوجود الفعلي للمطلق على استبعاد الروح المطلقة ، وعلى إضفاء طابع المطلق على الطبيعة الإنسانية ، وعلى الحياة الاجتماعية .

كان « فوير باخ » (١٨٠٤-١٨٧٢) من الجناح اليساري الهيجلي ، انضم إلى تلاميذ « هيجل » - قبل وفاة « هيجل » بأعوام قليلة - بـبرلين . وكان من قبل يدرس العلوم الدينية ، ويقال إنه انضم إلى تلاميذ « هيجل » حين وقع في أزمة فكرية ، نتيجة لضروب التوفيق ، التي سعى إليها علماء لاهوتيون - من أمثال « شلاير ماخر » - بين الحرية الإنسانية ، والتبعية لله ، وبين قوانين العقل ، ومطالب الإيمان . ولم يستطع « فوير باخ » ، بأن يجد - حتى عند زعيم المثالية الألمانية - حلاً مرضياً لهذه التوترات . « والواقع أنه كلما استمع إلى « هيجل » ، وهو يتحدث عن تعينات « الفكرة المطلقة » في الواقع الإنساني ، ازداد تعجباً عن كيفية التوفيق بين هذه النظرة المثالية للإنسان ، وبين ما تقرره البيولوجيا والفزياء عن الإنسان . وعن ذلك المزاج المتشكك العميق الذي تولد عن هذا المأزق ، وضع « فوير باخ » تدريجياً فلسفة ، رأى أنها أكثر تمشياً ، مع الروح العلمية في القرن التاسع عشر .

أنتج « فوير باخ » في الفترة القصيرة ، التي تمتد بين عامي ١٨٣٩ ، و ١٨٤٣م أربعة مؤلفات رئيسية ، تحدد موقفه من

المسيحية ، ومن الهيجلية ، وقد تنبأ بأن مستقبل الفلسفة ، ينتمي إلى موقف ، يجمع بين النزعة الإنسانية ، والنزعة الطبيعية ، ولكنه أضاف ، شرطاً لفتح الطريق أمام النزعة الإنسانية الطبيعية ، ألا وهو إزالة إله المسيحية ، ومطلق « هيجل » .

وإلى طريقة « فوير باخ » في وضع مشكلة العقل والطبيعة ، يرجع السبب الرئيسي ، الذي جعل من الإلحاد سمة مميزة ، لكثير من النزعات الإنسانية والطبيعية ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

أرسى « فوير باخ » قواعد الإلحاد في العصر الحديث ، فطرح قضية شغلت الفكر ، ذلك أنه تقدم بقضية « تاريخية » ، هي أن المهمة الرئيسية للفكر الحديث ، هي « تأنيس الإله » ، إذ يرى أن البروتستانتية تركز على دلالة الله للخلاص الإنساني ، ومذهب شمول الألوهية ، يغلق الأبواب على الله داخل الطبيعة ؛ والمذهب التجريبي يحكم على الله بمعيار النزعة العملية في الإنسان ؛ وتنظر المثالية إلى الله والطبيعة ، بوصفهما وجهين لكل روعي واحد . ويعد « هيجل » ذروة هذا الاتجاه « التأنيسي » ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة التي تدفعه إلى النتيجة المحتومة التي تتألف من رد كل ما هو فوق الإنسان إلى الإنسان ، وكل ما هو فوق الطبيعة إلى الطبيعة ، وتنقطع الأسباب بمذهبه ، دون الوصول إلى هذا الرد النهائي ، نتيجة لاحتفاظه بالروح المطلقة » .

ويرى « فوير باخ » أن رسالته الخاصة ، هي « تأنيس » و « تطبيع Noturali Zalton » الروح المطلقة ، بصورة تامة .

وتنفيذاً لهذا المشروع ، يقبل « فوير باخ » موقف « هيجل » إلى حد معين ، ثم يقلب العلاقات الجدلية ، التي سلم بها مؤقتاً . فإذا قال « هيجل » : « العقل هو وحده الحقيقي ، والموجود فعلاً » .

قال « فوير باخ » على عكس ذلك : « الإنسان هو وحده الحقيقي ، والموجود الفعلي » .

لأن ما هو إنساني هو وحده العقلي :

الإنسان هو مقياس العقل . . . و « المطلق » بالنسبة للإنسان هو طبيعته الخاصة .

وبهذه الطريقة يفسر « فوير باخ » الدين والله من الطبيعة الإنسانية وميوها ، « فما يميز الإنسان عن الحيوان ، هو قدرته على أن يدرك بتفكيره ، لا الفرد وحده ، بل النوع بأكمله . وعقل الإنسان مليء بطبيعته الجوهرية الخاصة ، إلى درجة انتهت به إلى اعتبار نفسه كائناً لا متناهيّاً . فاذا عرف الدين بأنه الوعي باللامتناهي ، أمكننا أن نفهم ذلك ، بوصفه إدراكاً للانهائية وجود الإنسان الجوهرية الخاص ، غير أن العقل الديني ، لا يرى في البداية أن موضوع عبادته ، هو ماهية الإنسان اللامحدودة . الإنسان يبدأ بأن يرى طبيعته ، وكأنها « خارج » نفسه ، قبل أن يجدها في نفسه . وفي الحالة الأولى ، يتأمل نفسه وكأنها نفس كائن آخر » .

ومن هذا التحليل يستخلص « فوير باخ » هذه النتيجة المتناقضة :

وهي أن العقل الديني ، الذي يبلغ أقصى حالات الوعي بذاته ، ينبغي أن يكون ملحدًا . فالإنسان هو نفسه الإله الحقيقي الوحيد . وما ان ينفذ الإنسان إلى دلالة الدين الحقيقية ، حتى يستطيع الاستغناء عن الاله ، أو عن الروح المطلقة ، ويكرس نفسه لتحقيق إمكانات وجوده الجوهرى الخاص .

ولا شك في أنه كان مغالياً ، حين سمح لفكره أن يضيف طابع المطلق على كل ما يخصص له « الديالكتيك الهيجلي » وظيفة ثانوية ؛ فبينما يقول « هيجل » إن الروح المطلقة ، هي وحدها الموجودة فعلا ، وأنها منعمكة في العملية الزمانية .

يلتزم « فوير باخ » بما يناقض ذلك ، فيقول :
إن الموجود المتناهي المتطور زمانياً ، هو وحده الموجود الفعلي ، ويتمسك - مخالفاً مذهب الألوهية - بلا تناهي الإنسان .

فهو لا يدرك الفرق بين الدفاع عن حقيقة الأشياء المتناهية ، باثبات أنها « ليست » لحظات في النمو الديالكتيكي للروح المطلقة ، وبين أن يفعل ذلك ، بأن يجعلها المضمون المطلق الوحيد للوجود .

كان « فوير باخ » من أكبر فلاسفة الإلحاد في القرن التاسع عشر . بنى فلسفته على « أن الحقيقة » هي علم الإنسان ، وأن علم الإنسان هو الدين ، والدين إذن محصول للعقل الإنساني ، وليس موحى به من خارج الإنسان .

« والطبيعة الإلهية » كذلك ، هي طبيعة الانسان نفسه ، وأفكاره ، وآماله الإنسانية . « فهو يكفر بالحياة الآخرة » ، إذ هي ليست عنده

شيئاً آخر ، سوى هذه الحياة الدنيوية ، على اعتبار أن الله ليس شيئاً آخر غير الإنسان .

فكان يرى أن الإنسان ، إذا فقد الإيمان ، ولم يصدق بحياة أفضل في الآخرة ، وأراد أن يقيم حياة سعيدة على هذه الأرض ، فسيخلق هذه الحياة .

تعلم « ماركس » هذا الدرس ، درس الإلحاد من « فوير باخ » وحوله من وحدة بين الوعي الذاتي ، والروح المطلقة ، إلى وحدة بين الوعي الذاتي ، والوعي الاجتماعي للبشر ، ليصل بذلك إلى نزعة الإلحاد الاجتماعية .

ماركس :

استمد « ماركس » مصادر فكره الأولى من « فيشته » و « هيجل » و « فوير باخ » ، فقد قوبلت بحوث « فوير باخ » ذات النزعة الطبيعية بحماس شديد في أوساط الهيجليين اليساريين ، وكان ماركس - وهو يملك عقلاً نظرياً ، لعله أشد العقول نفاذاً بين شباب الهيجليين في أربعينات القرن التاسع عشر - يبحث عن هداية فكرية حازمة ، تقوده إلى نزعة إنسانية طبيعية ، فاستوعب - بسرعة بالغة - حجج « فوير باخ » ، ضد الروح المطلقة ، فخلص من ذلك إلى اعتناق فكرة :

النزعة الإنسانية الطبيعية ، أو النزعة الطبيعية الإنسانية ، واعتمد في ذلك :

– إما على رغبته في تأكيد احتواء النشاط ، والتطلع الإنسانيين داخل الطبيعة المتناهية .

– أو في تأكيد الإسهام ، المتميز للذكاء والعمل الإنسانيين في المجال الطبيعي ، وفي كلا التأكيدين يلتقي ما هو واقعي – على أي حال – بمجموع علاقات الإنسان والطبيعة التقاء تاماً .

ولكي يضمن اتحادهما ، واتجاه كل واحد منهما نحو الآخر ، فقد ألقى الضوء على وظيفة العمل ، التي هي الوسيلة الرئيسية – عنده – « لتأنيس » الطبيعة و « تطبيع » الإنسان أيضاً ، وأشار إلى قدرة العمل على التحويل في التاريخ كدليل عيني ملموس ، على الاكتفاء الذاتي المتناهي ؛ فالإنسان يصبح إنساناً اجتماعياً من خلال عمله مع الآخرين ، وفي بيئة طبيعية ، وهنا لأول مرة يصبح وجوده الطبيعي ، هو وجوده الإنساني ، وتصبح الطبيعة إنسانية بالنسبة له .

وهكذا يكون المجتمع هو الوحدة الجوهرية الكاملة ، التي تتألف من الإنسان والطبيعة . . . هذا إذن هو المطلق الجديد ، الذي قدمه « ماركس » ليحل مكان التحول ، الذي أراد به « هيجل » أن يصرف الإنسان نحو الروح اللامتناهية ، وليكون وسيلة لصبغ نزعة « فوير باخ » ، بصبغة اجتماعية ، وتاريخية أكثر وضوحاً .

سعى «ماركس» – بعد أن اهتدى إلى هذا المطلق الاجتماعي – إلى استبعاد الله من الفلسفة – ومن الحياة العملية – ؛ فانفق مع

« فوير باخ » قلباً وقالباً ، على أنه بقدر ما يرفع الإنسان من شأن الله ، بقدر ما يحط من شأن نفسه ، ومن ثم فقد أهاب بالتقوى التي يشعر بها الناس نحو الطبيعة ، وبتوقيهم ، الإنساني للإنجازات الحضارية ، بوصفها أسباباً كافية للحاد . وكان حكمه أنه من الآن فصاعداً ، لن يسلم بأي وجود إلهي فيما وراء الطبيعة .

« إن إلغاء الدين – بوصفه سعادة الناس الوهمية – شرط من شروط سعادتهم الحقيقية . ودعوتهم إلى التخلي عن أوهامهم فيما يتعلق بوضعهم ، هو دعوتهم إلى التخلي عن وضع يعين على الأوهام . . . وواجبنا المباشر هو أن نميط اللثام عن الاغتراب الإنساني في صورته الدنيوية ، بعد أن رفعنا عنه القناع في صورته المقدسة . وهكذا يتحول نقد السماء إلى نقد للأرض ، ونقد الدين إلى نقد للقانون ، ونقد اللاهوت إلى نقد للسياسة » .

كان من الممكن أن يكون مصير فلسفة « ماركس » ، هو نفس مصير فلسفة « فوير باخ » ، تنحصر في مدرجات الجامعات ، وبين أروقة الباحثين والمفكرين ، ولكنه – أي ماركس – استخدم « مبدأ النقيض » في المجال الاقتصادي ، فاتصل بالجماهير ، مما جعل لفلسفته أتباعاً ، استغلوا جهل العامة بالمتناقضات في هذه الفلسفة ، فاستخدموهم لانتزاع السلطة في بلد ، أتاحت لها الظروف الدولية ، أن تكون إحدى القوى العظمى في العصر الحديث ، ثم ما لبثوا أن استغلوا الأوضاع السياسية ، التي خلقتها سني الاستعمار الأوربي لدول آسيا وإفريقيا لنشر إلحادهم في تلك البلاد ، ويأتي العالم الإسلامي في مقدمة المناطق ، التي تقع في مواجهة الدعاية

الشيوعية الإلحادية ، التي تبدو للجماهير العمالية في ظاهرها حلوة ، مع أن في باطنها هلاك ودمار لهم أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً .

تناقض فكر « ماركس » في استخدامه « مبدأ النقيض »

استخدم « ماركس » « مبدأ النقيض » ، الذي عرف للفيلسوفين الألمانين قبله ، « فيشته » و « هيجل » . . . ولكن في مجال آخر ، غير مجال التصور الذهني ، الذي وجدناه عند « فيشته » ، وغير مجال « الفكرة » ، الذي عرفناه لـ « هيجل » . استخدمه في مجال الاقتصاد ، مستنداً إلى تاريخ المجتمعات البشرية .

إن التصور العام « لمبدأ النقيض » هو أن كل « شيء » في الوجود ، يتضمن نقيضه ، بحيث أنه يهدم نفسه بنفسه .

استخدم « ماركس » هذا المبدأ ، لكي يقيم الدليل على انهيار المجتمع الرأسمالي . . . ، فهو يرى أن المجتمعات السابقة على الرأسمالية ، - وهي : مجتمع الملوك ، والمجتمعات الإقطاعية « حيث يتحكم أصحاب المزارع الكبيرة في سلطة الدولة » - انهارت لأنها تضمنت عنصر النقيض ؛ فقد قام الصراع بين الملك - لأنه يملك الأرض وما عليها ، ومن عليها - والشعب ، فأدى ذلك إلى اضطراب الملك إلى إقطاع بعض رجاله إقطاعيات ليكونوا سنداً له ، فتحول المجتمع إلى مجتمع إقطاعي ، وهذا المجتمع بدوره ، يتضمن عنصر النقيض ، ويمثل هذا العنصر الأجراء عند الإقطاعيين ، وعليه فقد قام صراع بين الأجراء والاقطاعيين ، أدى إلى تنازل

الاقطاعيين عن الأرض للأجراء ، وتحولوا إلى بناء المصانع ، فتحول المجتمع إلى مجتمع رأسمالي ، والصراع قائم بين أصحاب رؤوس الأموال ، وبين العمال ، وسيؤدي حتماً إلى أن يملك العمال المصانع ، وبذلك سيتحول المجتمع إلى شيوعي .

إن لاستخدام « مبدأ النقيض » على هذا النحو بريقاً ولمعاناً ، وهو أسلوب يخدع الجماهير ، ويقودهم بمقود ناعم ، إلى ساحة يتوقعون فيها الحصول على السعادة الدنيوية ، ساحة تطبيق الشيوعية ، أو الاشتراكية - كما يسمونها تورية وتعمية - ، فاذا وصلوا إليها ، لا يجدون سوى الضياع والهلاك ، ولو دققوا النظر فيما يدعيه « ماركس » من سقوط المجتمعات - طبقاً لنظريته - لتبين لهم خطأها من عدة وجوه :

١ - لم يتحول مجتمع الملوك - كما يدعي « ماركس » - إلى مجتمع إقطاعي ، نتيجة للصراع بين الملك والشعب ، وإنما أقطع الملك بعض قواده ، ووزرائه تكريماً لهم ، على خدماتهم له ، أو للدولة . أضف إلى ذلك أنه لم يكن المجتمع الإقطاعي بديلاً لما سبقه ، بدليل أن نظام الملكية لم يبلغ في هذا المجتمع ، بل ظل قائماً ، وبقي الملك جالساً على عرشه .

٢ - كذلك لم يتحول المجتمع ، من إقطاعي ، إلى رأسمالي ، تحت ضغط الصراع بين الأجراء والإقطاعيين ، وإنما لأن الإقطاعيين رأوا أن الصناعة تدر ربحاً أكثر من الأرض ، فباعوها ، وأقاموا المصانع سعياً وراء هذا الربح .

٣ - يدعي «ماركس» - طبقاً لنظريته في استخدام «مبدأ النقيض» - أن التطور ينقل المجتمعات من مرحلة إلى التي تليها ، ولكن الواقع خلاف ذلك ؛ فقد كان المجتمع في روسيا قبل الثورة البلشفية إقطاعياً ، ولم يكن رأسمالياً ، فكيف تحول منه إلى الشيوعية ، دون أن يمر بمرحلة الرأسمالية !!! !

٤ - كما يدعي أن هذا التطور حتمي ، فكيف يفسر الماركسيون ، عدم تحول المجتمعات الغربية الرأسمالية إلى شيوعية ، على الرغم من أنها سبقت المجتمعات التي تطبق الشيوعية ، إلى مرحلة الرأسمالية !!! !

٥ - يدعي «ماركس» أن التطور طبيعي ، لأن كل مجتمع يحمل نقيضه ، الذي يتصارع معه ، فهل يستطيع «الماركسيون» أن يبينوا لنا ، ما هي أطراف الصراع في المجتمع الشيوعي القائم الآن !!! هل يدور الصراع بين قادة الحزب - وهم حفنة قليلة - الذين يملكون كل شيء ، وبين بقية أفراد الشعب ، الذين لا يملكون شيئاً ، حتى ولا أنفاسهم ، لأنها معدودة عليهم بواسطة المخابرات !!! !

فان قالوا : ليس هناك صراع ، فقد نقضوا أساس نظرية «ماركس» بأنفسهم ، لأنها قائمة على مبدأ النقيض .

٦ - يدعي «الماركسيون» أن مجتمعهم ، هو أرقى المجتمعات ، لأن من لوازم قضية التطور ، صيرورة الشيء إلى ما هو أحسن منه . والسؤال الذي يوجه اليهم هنا هو :

هل سيقف تطور المجتمعات إلى هذا الحد ؟

فان قالوا : نعم .

فقد نقضوا نظريتهم ، لأنها قائمة على مبدأ الاستمرار في التطور ، وهو أساس « مبدأ النقيض » .

وإن قالوا : لا .

فقد حكموا على مجتمعهم ، بأنه ليس هو الأفضل ، وينبغي عليهم ، إن أرادوا أن يكونوا « تقدميين » - كما يزعمون - أن يبحثوا عن الأفضل .

٧ - يدعي « ماركس » أن التطور حتمي وطبيعي ، أي أنه نابع من المجتمع ، ويسير سيراً طبيعياً ؛ كما يفهم ذلك من « مبدأ النقيض » .

ولكننا نرى أن المجتمعات ، التي تطبق الشيوعية الآن ، لم تتحول إلى هذه المرحلة ، طبقاً لهذا المفهوم ، بل أجبرت بقوة السلاح - في روسيا عن طريق الثورة البلشفية ، وفي دول شرق أوروبا بواسطة قوات الجيش الأحمر عندما سيطر عليها في الحرب العالمية الثانية - ولا يمكن أن يعزى التحول الذي حدث بالقوة إلى تفاعل طبيعي داخل المجتمع .

سياسة « الماركسيين » تجاه الإسلام والمسلمين

لو لم تقم الثورة الروسية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ،
لمات الفكر الماركسي ، لأنه لا يحمل أي مقوم ذاتي يساعده على
الثبوت والاستمرار ، ولكن بقاءه يعود أولاً إلى القوة المسلحة ، التي
تسانده ، وتقف وراءه في كل مكان وجد فيه .

وما تطلقه الدعاية الشيوعية من شعارات : كالتقدمية ، والحرية ،
والعدالة الاجتماعية ، والسلام الخ ، يكذبها
واقع المجتمعات ، التي يفرض عليها النظام الشيوعي فرضاً .

وسنبين ذلك بعد عرض سريع لعلاقة روسيا الشيوعية بالإسلام
والمسلمين بعد قيام الثورة البلشفية .

علاقة الماركسيين بالمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي .

وجهت الحكومة السوفييتية الجديدة في ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٧م
- أي بعد انقضاء ستة أسابيع على وقوع الانقلاب ، الذي جاء
بالبلشفيين في روسيا إلى الحكم - نداءها الرسمي الأول ، إلى
المسلمين ، جاء فيه :

« لقد سقطت ممالك المغتصبين ، والقراصنة الرأسماليين ،
وإن الأرض تغلي تحت أقدام المعتدين الاستعماريين . يا مسلمو
روسيا ، يا من خربت مساجدكم ، وهدمت بيوت عبادتكم
نعلن لكم :

أن عقائدكم الدينية ، وشعائركم ، ومنشآتكم الحضارية والقومية ، ستصبح ابتداء من اليوم مصونة ، لن تمتد إليها يد آثمة . أقيموا حياتكم القومية ، في جو من الحرية ، دون أن يعوقها عائق ، فلكم الحق في ذلك » .

كان الدافع إلى هذا النداء ، هو محاولة كسب المسلمين إلى جانب الشيوعيين ، حتى يتمكنوا من بلشفتهم ، يشهد بذلك ما تلاه من خطوات ؛ فقد كونت موسكو في يناير سنة ١٩١٨م لجنة مركزية - أطلق عليها اسم « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » - وأولتها رعاية خاصة ، فمنحت الحماية الكاملة ، ودعمت بالأموال اللازمة دون حساب .

حصرت مهمة هذه اللجنة في بادئ الأمر في شئون المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي . ولكن سمح لها فيما بعد بتوسيع دائرة اختصاصها ، لتشمل المسلمين في أرمينية ، فأصبحت - أو شعرت - بأنها مسئولة عن تيسير شئون الدين الإسلامي في هذه المنطقة ، وبهذا تدخلت هيئة سوفيتية لأول مرة - دون موارد أو مدارة - في مسائل تتعلق بشئون إقليم ، يقع خارج حدود الاتحاد السوفيتي .

ثم خطت الحكومة السوفيتية خطوة أخرى ، فأوحت إلى هذه اللجنة ، أن تدعوا إلى عقد مؤتمر في ديسمبر سنة ١٩١٨م ، وكان الهدف الأساسي من وراء عقده ، أن تتوصل الدعاية السوفيتية ، إلى إنشاء خلايا لها في العالم الإسلامي ، ففي أثناء انعقاد المؤتمر ، تكونت « رابطة تحرير الشرق » وصيغ برنامج عملها في مذكرات تحت عنوان : « الشرق والثورة » .

دب النشاط في « رابطة تحرير الشرق » ، فأُسست في عام ١٩٢٠م مدرسة عليا في طشقند ، لتخريج الطلائع الثورية في الشرق ، إذ يدرب في هذه المدرسة حملة سياسة البلشفيين في العالم الإسلامي ، فيتعلمون كل الأساليب الثورية ، ثم يرسلون إلى كل الاتجاهات في منطقة العالم الإسلامي ، وللاعداد للثورات ، التي يقف الاتحاد السوفيتي من ورائها ، ويدعمها بالمال والسلاح .

أراد الماركسيون في الاتحاد السوفيتي ، أن يمهدوا الطريق أمام أذنانهم داخل العالم الإسلامي ، فدعوا إلى عقد مؤتمر لشعوب الشرق في «باكو» ، وكان ذلك في خريف عام ١٩٢٠م ، ووجهت الدعوة إلى أكثر من ٢٥٠٠ عضواً ، من كل بلاد العالم الإسلامي ، فلبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضواً .

لم تصل روسيا إلى أهدافها في المؤتمر ؛ فقد انقسم الشرقيون فيه إلى مجموعتين ، واجهت إحداهما الأخرى :

مجموعة شيوعية ، وكانت ترى أن التمهيد للثورات الوطنية في الشرق الإسلامي ، يمثل مرحلة على الطريق إلى الثورة الاشتراكية

أما المجموعة الثانية ، فرحبت باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية ، وتأييدهم لحركات التحرير في الشرق ، وفيما عدا هذا ، يجب أن تبعد هذه الثورات عن الأفكار الثورية الاشتراكية ، التي تطبقها روسيا داخل أقاليمها . ولم تكن روسيا بالنسبة لهؤلاء سوى صديق يساعدهم على التخلص من الاستعمار .

كذلك رفضت فكرة المقارنة بين الإسلام والاشتراكية ،
التي أعلنها الشيوعيون على المؤتمر . وهي :

« . . . كما أن الإسلام يدعو إلى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخي
بينهم ، كذلك يضم رباط أخوي ، كل الذين يؤمنون بالنظام
الاشتراكي البلشفي ، الذي يدعو إلى المساواة ، فهو يشبه النظام
الإسلامي » .

كان لرفض المسلمين المشتركين في المؤتمر لهذا التحليل رفضاً
باتاً ، أثر على السياسة البلشفية ، تجاه الشرق الإسلامي ، وعلى
المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي ؛ إذ كان حكام روسيا البلشفية ،
يتصرفون معهم بتحفظ ، حتى لا تنسف مجهوداتهم في العالم
الإسلامي ، ولكن بعد أن فشلت سياسة البلشفيين ، وتحطمت
محاولتهم ، في تقريب الثورات الوطنية من الاتجاه الاشتراكي ،
تغيرت سياسة الحكومة السوفيتية تجاه المسلمين ، الذين يعيشون
داخل الاتحاد السوفيتي ، فسقطت أقنعة التسامح الديني ، الذي
تظاهروا به في بيانهم الأول ، فأغلق عدد كبير من المساجد ،
وجمعيات تحفيظ القرآن ، بلغ عددها حتى عام ١٩٣٣م ،
ما يقرب من ٨٠٪ من العدد الكلي للمساجد ، ولم تهدم أبنيتها ،
بل تحولت إلى مدارس علمانية ، ومسارح ، ودور للخيالة
- سينمات - ونواد ، فتحول مبنى المدرسة الإسلامية العليا في
سمرقند إلى متحف للحاديين ، الذين ينكرون وجود الله . وطبقاً
للتقديرات المتحفظة - لأن روسيا تفرض رقابة شديدة ، حتى
لا تتسرب أنباء بلشفة المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي ، والاستهانة

بمقدسات الإسلام إلى العالم الإسلامي - التي وصلت إلينا ، فقد بقي للمسلمين في بخارى عام ١٩٣٣م عشرة في المائة فقط من مساجدهم ، التي كان عددها أربعمئة مسجد .

حاولت جمعية الملحدين في الاتحاد السوفيتي ، أن تنشر تعاليمها في المناطق الإسلامية في روسيا ، واستماتت في نشاطها ، للحصول على أتباع من المسلمين ، ولكن المسلمين بدوا محصنين ، ضد دعاية هذه الجمعية ، ومما هو مؤكد أن أعضاءها مارسوا - وما زالوا يمارسون حتى الآن - معهم كل الأساليب ، بما فيها استعمال القوة ، ومع هذا فقد ظل نجاح هذه الجمعية ضئيلاً جداً ، ليس له وزن .

ومن الجدير بالذكر أن « مبشري » - أو بمعنى أصح « مضللي » - جمعية الملحدين ، لاقوا من المسلمين عنتاً أكبر ، ومقاومة أعنف ، مما لاقوه من المسيحيين . وما زال إخواننا المسلمين في الاتحاد السوفيتي ، يتعرضون - حتى الآن - لأساليب التهديد المختلفة ، لأنهم يؤمنون بالإسلام ، ويطبقون تعاليمه ، حتى وإن كان ذلك في خفية عن أعين رقباء النظام الماركسي ؛ فقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية في عددها الصادر في ١٧-٧-١٩٧٤م ما يلي :

« موسكو - رويتر : ذكرت الأنباء الصحفية ، التي وصلت إلى موسكو اليوم ، أن عدداً من الأعضاء العاملين في الحزب الشيوعي بمنطقة قوقازية نائية ، قد طردوا من الحزب بسبب مشاركتهم في الاحتفالات الدينية الإسلامية .

« وجاء في مقال نشرته صحيفة « زوربافيتسكا » . . . بعددها الصادر يوم الجمعة الماضي أن عدد المؤمنين في منطقة « أزهاريا » ، الواقعة على البحر الأسود ، بالقرب من الحدود التركية ، قد تزايد بدرجة كبيرة في العام الماضي .

وذكرت الصحيفة ، أن مدير إحدى المزارع الجماعية ، قد فصل من الحزب ، كما تعرض بعض رجال الحزب الآخرين ، لتأنيب قاس ، بسبب انخفاض مستوى الدعاية الالحادية ، التي يقدمونها ، بسبب مشاركتهم في الطقوس الدينية .

علاقة روسيا البلشفية بالعالم الإسلامي

تضمن البيان الذي أعلنته الحكومة السوفيتية البلشفية فقرات ، وجهت إلى المسلمين خارج روسيا ، جاء فيها :

« . . . يا مسلمو الشرق : يا إيرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المعتصبون الاستعماريون القادمون ، من أوروبا ، التجارة قروناً طويلة ، بأرواحكم وأموالكم ، وحریاتكم ، وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب ، الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم :

– إن معاهدات القيصر المخلوع السرية ، التي نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة ، قد مزقت ، ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية ، وحكوماتها ترفض الغزو المسلح لأراضي دولة أجنبية .

– إن معاهدة تقسيم إيران ، قد مزقت ، وأزيلت من الوجود ،
فبعد أن تنتهي العمليات الحربية ، ستسحب القوات الروسية مباشرة
من إيران ، وستكفل الحرية للشعب الإيراني ، ليقرر مصيره
السياسي ، عن طريق استفتاء شعبي حر .

– إن معاهدة تقسيم تركيا ، واغتصاب أرمينية ، قد مزقت ،
ومحيت من الوجود ، وبعد أن تنتهي العمليات الحربية ، ستكفل
الحرية أيضاً لشعب أرمينية ، ليقرر مصيره السياسي ، عن طريق
استفتاء شعبي حر .

حددت هذه الكلمات أسس الاتجاه السياسي ، الذي أراد
السوفييت الالتزام به تجاه العالم الإسلامي ، حيث تنتشر انتفاضة
ضد المستعمرين ، وكان البلشفيون يقصدون من وراء هذه الوعود
– التي لم يلتزموا بها فيما بعد – استغلال هذه الموجة التحررية – التي
عمت أرجاء العالم الإسلامي – لتمهيد الأرض أمام عقائدهم ،
وسرعان ما تجاوزت أصدااء البيان الروسي ، وأحدث رجح الصوت
دوياً في أرجاء المنطقة ، فتزايدت الأصوات في تركيا ، وفارس ،
التي هللت للبيان السوفيتي ، ووصفته بأنه وثيقة الحرية الكبرى .
كما أثر النداء في الفكر الإسلامي تأثيراً كبيراً ، إذ اختط قنوات
وعبر طرقاً للفكر الماركسي الالحادي ، وظهرت معالمه في كثير
من أوجه النشاط الفكرية والسياسية ، ونلمح أثر ذلك في قيام
روابط بين ما يسمون أنفسهم بالثوريين في البلاد الإسلامية ،
وفي وضع الخطط لقيام اتحاد بينهم ، يعمل على إنشاء رباط
ثوري ، بين التيارات المتطرفة في الأقاليم الإسلامية .

أرادت موسكو أن تقيم علاقات وطيدة بين حركات الاستقلال الوطني ، التي اندلعت في العالم الإسلامي ، وبين النضال العقائدي ، الذي تقوده ، في مواجهة العالم الغربي ، فتقدمت على جبهات متعددة ، وحاولت الدعاية الشيوعية اجتذاب الشباب الوطني ، إلى جانبها ، تمهيداً لبلشفته ، حتى يكون رسل الماركسية في المجتمع الإسلامي ، وفي الوقت نفسه ، تقدمت الحكومة السوفيتية بمساعدات للحكومات ، التي أبدت استعداداً ، وميلاً للعمل مع الاتحاد السوفيتي ضد الاستعمار الغربي .

في أفغانستان :

ظهرت آثار السياسة الشيوعية أولاً في أفغانستان ؛ إذ هزت الدعاية الشيوعية موقف الأمير حبيب الله ، عندما أشاعت ، بأنه آلة في يد الساسة البريطانيين ، اشتروه بثمن بخس ، ثم أمدت روسيا عملاءها الشيوعيين ، بالمساعدات المادية ، فأسسوا « حركة الاستقلال الوطني الأفغانية » ، وظهر على رأسها أخو الأمير ، ولم يمض وقت طويل ، حتى اغتيل الأمير ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور ، وتدفقت الأسلحة الروسية إلى داخل البلاد .

وبعد أن أعلن استقلال أفغانستان ، وقيام المملكة الأفغانية ، وتوقيع المعاهدة الأفغانية الإنجليزية في نوفمبر سنة ١٩٢٠م ، — تلك المعاهدة التي نصت على إنهاء الوصاية الإنجليزية على أفغانستان — سارعت روسيا بإصدار بيان تقول فيه ، إن مجلس الوزراء السوفيتي يعلن :

« إن حكومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها ، تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة - ابتداء من الآن - واجب التحالف مع روسيا ، لمساعدة شعوب الشرق الإسلامي ، التي لا زالت ترزح تحت نير العبودية ، لتنال حريتها الوطنية والاجتماعية » . وتبدو في البيان نغمة الثورة الاشتراكية ، التي تحاول موسكو أن تلزم الحكومات الجديدة في المناطق المستقلة حديثاً ، باتباع النموذج المطبق في موسكو ، وأن تحذو حذو البلشفيين في روسيا ، أي اتخاذ موسكو كعبرة لها في الإصلاح السياسي والاجتماعي .

نجحت هذه السياسة إلى حد ما في أفغانستان ، فتحقق هذا التحالف الذي نادى به موسكو ، وذلك بإبرام معاهدة الصداقة الروسية الأفغانية ، التي وقعت في فبراير سنة ١٩٢١ ، ومما يلفت النظر أنه نص في هذه المعاهدة على قيام خمس قنصليات لروسيا في أفغانستان ، بجانب سفارتها في كابول ، ولا شك أن المقصود من وراء إنشاء هذا العدد من القنصليات ، هو تطوير وتركيز النفوذ السوفييتي ، الذي يسهل عملية نشر العقائد الماركسية .

ولكن لم تصل روسيا إلى هذا الهدف ، كما لم تحقق هدفها الحقيقي ، وهو قيام الثورة الاشتراكية ، وذلك بسبب معارضة الحكومة ، الذي كان عاملاً هاماً في سد الطريق أمام الدعاية الشيوعية ، حتى لا تنفذ إلى الأقاليم الأفغانية ، فانهصر نشاط البلشفيين في العاصمة كابول ، حيث أنها استخدمت كمركز للدعاية الشيوعية ، خارج حدود أفغانستان ، إذ وصل حملة العقائد الماركسية

إلى الهند ، وكان يتلقون أوامرهم من كابول ، لا يتحركون إلا بتوجيههم وإرشاداتهم . والحق أنهم كانوا في الهند «دمى» يحركهم البلشفيون من داخل أفغانستان . وهكذا تمكن الماركسيون من إقامة مركز لهم في هذا البلد ، تنطلق منه سموم الدعاية الالحادية ، التي لن تهدأ إلا بتحويل هذا البلد الإسلامي المتأخم للاتحاد السوفيتي إلى بلد شيوعي ، وقد ظهرت معالم هذا التحويل بقيام ثورة في هذا البلد في الفترة الأخيرة ، وإن لم يدرك العالم الإسلامي ذلك ، فيهب للحيلولة دون هذا التحويل الالحادي ، فسوف يندم المسلمون فيما بعد ، حيث لا ينفع الندم ولا يفيد .

في إيران :

اعتبر السوفييت المنطقة الفارسية ، ذات أهمية بالغة ، باعتبارها - من الناحية الجغرافية - مركز العالم الإسلامي في غرب آسيا ، فهي تهم روسيا بنوع خاص ، لأن حدودها معها تمتد مسافة كبيرة .

بعد أن بلشت منطقة بخارى ، حاولت روسيا - في بداية علاقتها مع إيران - أن تطوى هذه الدولة أيضاً ، عن طريق مساعدة الجيش الأحمر للحكومة ضد انجلترا ، وقد قوبل دخول هذا الجيش بالترحيب في بادئ الأمر ، لأنهم اعتبروه حليفاً ومساعداً لهم على التخلص من الاستعمار ، ولكن عندما لاح في الأفق ، أن هذه القوة المسلحة ، تحاول إشعال نار الثورة الاشتراكية ، - أي بلشفة إيران - انتشرت معارضة هذا الاتجاه ، وازدادت مقاومته ، فاضطرت الدعاية السوفيتية إلى مراجعة مخططاتها ،

وتبين لها أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهذه الخطوة ، فكتبت صحيفة « أرفستيا » في عام ١٩٢٠م تقول : « إن من الخطأ أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج ، الذي يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية ، فليس في فارس عمال مصانع ، بل هو بلد زراعي متخلف ، ولا ينبغي أن نحاول القيام بثورة هناك ، لأن الظروف لم تنهياً بعد ، ولم يوجد المناخ ، الذي يساعد على نجاح الثورة » .

هذا هو أسلوب الشيوعيين في كل بلد ؛ يختلفون تحت الشعارات الوطنية ، ثم يحاولون الوصول إلى هدفهم ، عن طريق إشعال نار الثورة ، مستخدمين القوات المسلحة ووسائل الإعلام ، والتجمعات العمالية ، فاذا لم ينجحوا ، تراجعوا المراجعة خططهم ، وإعداد العدة لمحاولة جديدة .

ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم إذا فشلوا في منطقة ، يسؤوا من النجاح فيها ، وصرفوا النظر عنها ... لا ... إنهم يحاولون المرة بعد الأخرى بأساليب مختلفة ، وطرق شتى ، متخفين وراء وجوه جديدة على المجتمع ، ويرتكبون كل شيء يوصلهم إلى هدفهم ، حتى ولو وصل الأمر إلى الكفر بمبادئهم ، ومهاجمتها علناً ، في بعض المواقف ، إن كان ذلك سيوصلهم إلى هدفهم ، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة .

اكتفت موسكو بتقديم المساعدات الدبلوماسية ، والأدبية ، والاقتصادية للثوار الفارسيين ، ليناضلوا ضد الاستعمار الانجليزي ،

وهكذا أصبحت موسكو في إيران - كما في أفغانستان - السند القوي للدولة الجديدة ، التي أسسها رضا خان ، وجنوده القوقازيين بعد الانقلاب ، الذي قاموا به في ٢٢ فبراير سنة ١٩٢١ م .

ساعد التزام روسيا بمساعدة الحكومة الوطنية ، على تدعيم مركزها في إيران ، وتمكين سلطانها بصورة أكبر مما كان لها في أفغانستان ، فأدى ذلك إلى عقد معاهدة صداقة مع الحكومة الإيرانية الجديدة ، تنازلت فيها موسكو - بالإضافة إلى تقديم المساعدات المالية السخية - عن الامتيازات ، التي كانت للرعايا الروس في إيران قبل الثورة البلشفية ، وفي مقابل ذلك دفعت الحكومة الجديدة ، إلى إلغاء الامتيازات الأجنبية ، بالنسبة لرعايا القوى الأجنبية الغربية . وكان الهدف من ذلك كله ، قيام حزام من الدول الصديقة لنظام الحكم البلشفي في روسيا ، ضد هجوم متوقع من القوى الغربية على روسيا ، وكانت تأمل أيضاً عن طريق هذه المساعدة ، أن يتحول المجتمع الإسلامي في إيران ، إلى اعتناق الأيديولوجية الشيوعية ، لتضمن بقاءه في فلك الجبهة الماركسية إلى الأبد .

ولكنها لم تصل إلى تحقيق قيام الثورة الاشتراكية هناك ، على الرغم من أن موسكو حاولت - ولا زالت - بعد عقد المعاهدة ، أن تتجاوز موقف المساعد في المسائل السياسية والعسكرية ، وكان رئيس الوزراء ضياء الدين - الذي عين بعد الانقلاب العسكري - أداة هذه المحاولة ؛ فقد أثبت للسوفييت أنه الرجل الاشتراكي المتطرف ، وأنه يعمل على نقل ملكية الإقطاعيات الكبيرة إلى الدولة ،

وذلك حين أمر باعتقال عدد من الأرستقراطيين والإقطاعيين ، كي يجبرهم على الموافقة على تأميم أملاكهم ، ولكن المقاومة ضد هذه الأفكار ، التي خرجت من مدرسة موسكو ، نمت بسرعة ، واشتدت ، وسرعان ما أظهر قائد الانقلاب ، رضا خان ، أنه لا يرضى عن العلمانيين ، أصحاب المبادئ الثورية الاشتراكية ، بل اعتبرهم خطراً على تحقيق الآمال الوطنية ، ولذلك قام بعزل رئيس الوزراء ، واتخذ إجراءات ضده ، فهرب - أي رئيس الوزراء المعزول - إلى خارج البلاد . ومنذ ذلك الوقت تتعقب الدولة ، كل المحاولات اليسارية ، التي تساعد أصدقاء البلشفيين ، على قيام ثورة بأسلوب لا هوادة فيه ، وكادت إحدى هذه المحاولات أن تنجح في الخمسينات ، لولا أن قبض الله لها رجالاً قضوا عليها ، قبل أن يستفحل أمرها ، ولم يكف الشيوعيون عن محاولاتهم بكل الطرق ، فلهم في الداخل تنظيم سري ، يقوم بعمليات تخريب واغتيال ، وفي الخارج يحاولون تجميع الطلاب الإيرانيين ، الذين يدرسون في البلاد الأوروبية حولهم ، ويلقنونهم المبادئ الماركسية ، ويعلمونهم أساليب الدعاية ، التي تساعد على إعداد الرأي العام الإيراني ، لتقبل قيام ثورة اشتراكية .

في تركيا :

بدأت السياسة السوفيتية في سعيها لتوطيد العلاقة مع تركيا ، أنها تسير نحو نفس الهدف ، التي سعت موسكو لتحقيقه في إيران ، وأنها اتخذت نفس الطريق ، وسلكت نفس الأسلوب ، صداقة لتقديم مساعدات ، فعقد معاهدة ، فمحاولة لقيام ثورة اشتراكية .

ففي صيف عام ١٩٢٠م زار إنفر باشا موسكو ، للتفاوض مع الشيوعيين هناك ، بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيا الحديثة . . . ثم كتب عن نجاح هذه الرحلة ، التي أطلق عليها بعضهم « رحلة الحج إلى موسكو » ما يلي :

« لقد توجت هذه الرحلة إلى موسكو بنجاح لم نكن ننتظره ، إذ تعمقت جذور الصداقة بيننا ، وبين روسيا ، فالمدافع قد عبثت بالذخيرة ، وتوشك أن تطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية سلطنة الاستعمار الانجليزي في آسيا وفي مصر . وحق للعالم الإسلامي أن يرفع رأسه - معتمداً على روسيا - كي يتخلص من العبودية الانجليزية » .

وصلت الصداقة السوفيتية التركية في عام ١٩١٠ م ، إلى الحد الذي عرضت فيه موسكو على كمال اتاتورك - وكان يحارب في جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة - أن ترسل له قوات روسية لمساعدته . . . وزاد الاتصال بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواسطة المعاهدة ، التي عقدت في مارس سنة ١٩٢١م ، والتي قررت مصير أرمينية ، بتقسيمها بين تركيا وروسيا .

احتلت روسيا - طبقاً لنصوص هذه المعاهدة - جزءاً من أرمينية ، على الرغم من إعلانها في البيان الأول ، الذي أذاعته الحكومة البلشفية ، أن تكفل حرية شعب أرمينية في تقرير مصيره السياسي ، عن طريق استفتاء شعبي حر .

كان هناك شبه كبير بين هذه المعاهدة ، والمعاهدة التي أبرمتها روسيا مع إيران ، بل تكاد تكون الحروف واحدة ، وركزت فيها - كما كان الحال في المعاهدة مع إيران - على كلمات رنانة مثل : الحرية والاستقلال ، وحرية تقرير المصير ... و ... الخ .

حاولت روسيا إضرام نار الحركة الشيوعية داخل تركيا ، فكلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعي التركي ، وقدمت لهم مساعدات مالية كبيرة ، غير أنهم اصطدموا بالحقيقة ، التي غابت عن أعينهم ، وهي أن الفلاحين الأتراك محافظون ، يتمسكون بالتقاليد الإسلامية تمسكاً لا يسمح لهم بالتجاوب مع شعارات الثورة الاشتراكية الواردة من موسكو ، كذلك لم يكن رجال السلطة الجديدة ، مستعدين لتقبل مثل هذه الشعارات ، ذلك أنهم - وإن كانوا قد ألغوا الخلافة ، ومضوا بالدولة إلى طريق بعيد عن الإسلام - لم يكونوا على استعداد لاعتناق إيديولوجية ، تنكر وجود الله علناً ، وتتخذ الإلحاد السافر طابعاً خاصاً لها .

لم تتراجع روسيا كلية ، بل هي تتربص لتحويل تركيا إلى دولة ماركسية ، ولولا دخول تركيا في حلف شمال الأطلسي ، لشهدت البلاد تحركات أوسع لعملاء الماركسية الاحادية .

في المنطقة العربية :

لعبت موسكو دوراً نشطاً في مناطق بعيدة عن حدودها داخل العالم الإسلامي ، فقد استغلت الحركات الوطنية ، التي هبت في البلاد العربية للمطالبة بالاستقلال ، فسعت إلى إقامة ترابط بين

حركات التجديد والإصلاح الوطنية ، وبين الحركات الشيوعية ، وأعطت الإشارة لعمالها الشيوعيين ، من مواطني تلك البلاد ، بأن يتحركوا بحرية ، ودون توقف ، فليست هناك مواقف دولية تجبرهم - كما هو الحال مع السلطة المعترف بها دولياً - على الحد من نشاطهم ، فهم ليسوا حكومات ، أو منظمات دولية ، ملتزمة بقانون ، وقواعد دولية معينة . تحرك هؤلاء طبقاً لأوامر روسيا ، وبمساعدها ، واشتبكوا مع الاستعمار ، آملين أن يهزوا أرض الشعوب الإسلامية - عن طريق هذا الاشتباك - ويلينوها ، ويحدثوا بها شقوقاً وفجوات ، تكون صالحة لوضع بذور الثورة الاشتراكية .

استخدمت موسكو هذا الأسلوب في شمال إفريقيا ، فنجحت في إرسال مقدمات الغليان الاشتراكي ، ولكي لا يظهر الشيوعيون بمظهر ، قد ينفر المسلمين منهم ، فقد مارسوا نشاطهم تحت راية القومية العربية ، لأنهم رأوا أنهم يستطيعون تحت هذه الراية مخاطبة العربي - الذي يتمسك بالإسلام ، وبتعاليمه ، تمسكاً لا يعرف المرونة ، ولا يميل إلى المهاونة مع أعدائه - بأسلوب يؤثر فيه ، لأنه ينظر إلى الشيوعي على أنه رجس وذنس ، وينبذ الشيوعية المطبوعة في موسكو ، لأنها تنكر وجود الله ، وتعمل على تخريب بناء الأسرة ، والقضاء على السيادة الأبوية المطلقة .

لم يختلف الوضع في فلسطين ، فقد بدأ للسوفيت أنها مكاناً مناسباً للقفز منه على البلاد الإسلامية المجاورة ، ولم يكن هذا راجعاً إلى أن هذا البلد ، كان بؤرة قلق منذ الحرب العالمية الأولى فحسب ، بل رأت موسكو أيضاً في اليهود الشرقيين ، الذين هاجروا

إلى فلسطين ، خامة بشرية تصلح لتلقي الأفكار الشيوعية ، فلديهم من الصفات ما لا يتعارض مع اعتناقها ، ونشر تعاليمها بين سكان هذه المنطقة .

وعندما اشتد النزاع بين العرب واليهود ، حاولت موسكو أن تكسب أتباعا لها في صفوف العرب ، وكانت تعتقد أن الفلاح العربي الفقير ، حقلا مناسباً لبذر بذور الاشتراكية ، فتصورت أنه إنسان يمكن إقناعه بتعاليم الشيوعية ، ولم يكن هذا سوى تخيلات فقط ، فالواقع أن عملاء موسكو ، لم يصادفوا آذاناً صاغية بين المسلمين ، اللهم إلا حفنة قليلة ، لا وزن لها ، لأن العرب يتمسكون بدينهم ، ويرتبطون بتعاليم الإسلام ، ويتصدون لكل إغراءات موسكو ، وكان ذلك هو الصخرة ، التي تحطمت عليها محاولات الشيوعيين ، للنفوذ إلى المجتمع الإسلامي .

وعندما ازدادت حدة النزاع بين العرب واليهود ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها في فلسطين في جناحين متباعدين : أحدهما يتخذ طريقه بين اليهود .
والآخر بين العرب .

وسار النشاط في هذين الفرعين منفصلاً تمام الانفصال ، وبشعارات مختلفة ، فقد كانت الشعارات عند اليهود هي الاشتراكية ، أما عند العرب ، فقد كانت الشعارات هي التحرر الوطني .

وعندما ألغى الانتداب البريطاني ، وطرح المسألة على هيئة الأمم المتحدة ، ظنت موسكو أن الأمل في قيام الاشتراكية في

الدولة اليهودية الجديدة ، أقرب إلى التحقيق منه في دولة عربية في فلسطين ، فانحازت في المناقشات إلى جانب اسرائيل ، وهاجم مندوبها الدائم في الأمم المتحدة - وكان يومئذ « أندريه جروميكو » وزير خارجيتها الحالي - العرب بألفاظ يعف لسان رجل الشارع العادي ، عن التلفظ بها ، فضلاً عن مندوب دولة كبرى ، في هيئة دولية .

ولا ينبغي أن يخدع المسلمون بما تقدمه روسيا لبعض الدول العربية من مساعدات عسكرية ؛ فليس القصد منها أن نستعملها في استرداد فلسطين ، بل - وهذا هو السبب الرئيسي - مساعدة النظم المتطرفة على البقاء في الحكم ، حتى يتسنى لعملاء روسيا ، في ظل هذه المساعدة ، بلشفة المجتمع ، استعداداً للتحويل إلى الماركسية الالحادية . ومن الأدلة على ذلك ، ما قاله زعيم الشيوعيين في إيطاليا ، لأحد المسئولين العرب - أثناء قيامه بجولة في أوروبا - رداً على شكوى المسئول العربي له ، بركود ، وتجميد الوضع في المنطقة ، وكان ذلك قبل حرب رمضان ، فقد قال الزعيم الشيوعي الإيطالي : « لماذا تقلقون من هذا الوضع ، إنه يساعد على تعميق بذور الاشتراكية في المجتمع » .

وأوضح من هذا موقف روسيا أثناء حرب رمضان :

- فقد حاولت تصديع الجبهة بين سوريا ومصر ، فأوحت إلى مصر بأن سوريا وافقت على وقف إطلاق النار ، ولم يكن ذلك سوى أكذوبة ! ، وعلى لسان من !! على لسان سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة .

إذا كان رجال السياسة عندهم يرتكبون هذا الإفك صراحة ،
على الرغم من العرف الدولي ، الذي يقضي بالحرص والتحفظ في
المجال الدبلوماسي ، فما بال الآخرين الذين يحملون سمومهم
لنشرها بين المجتمع !!!

كذلك أوقفت روسيا شحن الأسلحة وقطع الغيار ، والحرب
دائرة ، وطلبت الثمن نقداً ، وكانت تظن أن الدول المشتركة
بقواتها في الحرب ، ستعجز عن الدفع ، فترغم على تقديم
تنازلات ، تقوي مركز الشيوعيين ، وتقربهم من السيطرة على
السلطة سيطرة كاملة .

لا أريد الاسترسال في تناول نشاط الشيوعيين وتحركاتهم
بالشرح والتحليل داخل كل قطر عربي على حدة ، لأن ذلك
يطول شرحه ، ولذا سأعرضه من الزاوية المشتركة بين الأقطار
العربية ، التي ساعدت الظروف الدولية - ، على وقوعها بين مخالب
الأخطبوط الشيوعي ، فاكثرت - ولا زال بعضها يكتوي - بناره .

كانت المنطقة العربية مسرحاً لحركات تحررية - على مدى
المائة سنة الماضية - ، اتخذت طابع القومية شعاراً لها ، تقليداً لما
حدث في أوروبا في عصر القوميات ، وتجنباً للوقوع في صراع
ديني ، قد يعيق مسيرة التحرك نحو التخلص من الاستعمار ،
الذي كان يتعقب كل انتفاضة دينية ، بطريقة أكثر شراسة ودهاء ،
من أسلوب قمعه للحركات القومية ، لأنه كان يرى - بناء على
تجارب سابقة - أن زعماء الحركات القومية ، أقرب إليه ، من

زعماء الإصلاح الديني ، وأن كثيراً من المفكرين القوميين يميلون إلى تطبيق النظم الغربية ، في مجالات السياسة والتعليم والقضاء . أما رجال الدين ، فيرفضون كل ما هو غربي رفضاً باتاً ، لا يفرقون في ذلك بين ما هو متصل اتصالاً مباشراً بالتقاليد والعادات الدينية ، وبين ما من شأنه النهوض بالمجتمع والدولة في المجالات العلمية ذات الطابع الحضاري .

وعندما حصلت البلاد العربية ، على نوع من الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، مكنتها من المشاركة في تسيير شئونها ، أتيحت لحركات الإصلاح الديني فرصة الظهور على مسرح الأحداث ، فتكونت الجمعيات الدينية ذات الطابع السياسي ، وكان من الطبيعي أن تخوض صراعاً مع الحركات القومية ، التي كانت قد نمت ونضجت في ذلك الوقت ، ورغم نضوجها . فقد استطاع الاتجاه الديني رغم حدائته أن يكتسح الساحة ، فاكسب أتباعاً ، كان معظمهم من الشباب المثقف ، فأصبح له كيان ووزن في توجيه سير الأحداث على المسرح السياسي ، غير أن نشاطه لم يتعد المجال الشعبي لأنه كان بعيداً عن مراكز السلطة .

اشتد الصراع الإيديولوجي بين الحركات الدينية ، وبين الحركات القومية ، وعلى رأسها حملة الأيديولوجية الشيوعية ، الذين تستروا وراء شعارات قومية ، لأنه لم يكن مسموحاً لهم بتكوين حزب شيوعي ، غير أنهم كانوا يعلنون عن ولائهم للسوفييت ، وتعاطفهم مع قادة الإلحاد على رءوس الأَشهاد ؛

فقد كتب أحدهم - وهو من خريجي الأزهر - مقالا يرثي فيه « ستالين » تحت عنوان : « طبت حياً وميتاً يا ستالين » .

ظهر هذا المقال في جريدة كبرى ، تصدر في عاصمة بلد إسلامي ، فكان دليلاً على أن الصراع الإيديولوجي ، انتقل إلى مرحلة المواجهة السافرة بين التيار اليميني ، والتيار اليساري - الذي دعا إلى الشيوعية بأسلوب أكثر وضوحاً من ذي قبل - ، وأن صراعاً دموياً يوشك أن يقع بين الجانبين ، للوثوب إلى مراكز السلطة ، التي كانت تهتز تحت أقدام الحكام آنذاك .

ولكن سرعان ما قفز إلى السلطة شباب ، لم تعرف هويتهم بالضبط ، اللهم إلا ما كانوا يحملونه من شعارات : الاستقلال ، الحرية ، الوحدة العربية . . الخ .

اشتد الصراع بين اليمين واليسار ، للاستحواذ على هؤلاء الحكام الجدد ، فرأت القوى العظمى - شرقية وغربية - أن الفرصة سانحة ، للقضاء على التيار اليميني - الذي يهدد مصالحها في المنطقة - بيد الوطنيين أنفسهم ، فركزت المخابرات الأجنبية نشاطها على الوقعة بين زعمائه ، وبين الحكام الجدد ، حتى وقعت الواقعة ، فأصيب التيار اليميني بنكسة حادة ، أخرجته من ساحة النضال ، ويلخص بعض المفكرين الأسباب الرئيسية لنكبة التيار اليميني فيما يلي :

١ - نقص خبرة قادته ، وقلة تجاربهم في المجال السياسي .

٢ - نشوء الخلاف بينهم ، ويرى بعض الخبراء أن هذه الظاهرة كانت نتيجة لتسرب عناصر انتهازية ، إلى داخل صفوف القيادة ، ظناً منها أن هذا التيار ، أصبح قاب قوسين أو أدنى من تولي السلطة .

٣ - اصطدامهم اصطداماً مباشراً مع القوى الوطنية الجديدة ، التي تسلمت السلطة من الاستعمار ، وهي بطبيعة الحال لا تميل إلى هذا التيار ، نتيجة تأثير موجات دعائية أجنبية .

٤ - إجماع العسكريين ، الشرقي والغربي على ضرورة القضاء على التيار اليميني ، لأن كلا منهما وجد فيه خطراً على وجوده في منطقة العالم الإسلامي .

رأى الحكام الجدد أن الاصطدام بالقوى الغربية ، هو الورقة الأخيرة ، التي تحميهم من غضب الرأي العام في بلادهم - لأن الشعوب تسير وراء من يعلن النضال ، ضد المستعمرين الذين أذاقوهم أصنافاً من العذاب - فأقدموا على هذه الخطوة ، رغم ما فيها من أخطار قد تطيح بهم .

وعندما رأوا العواصف تهب عليهم من كل جانب ، اتجهوا إلى اليد الأخرى الممدودة لهم ، يد روسيا ، فاستعانوا بها في المواجهة مع الغرب . وكانت مساعدة روسيا في بادئ الأمر ، مقصورة على التأييد دبلوماسياً ، في المجال الدولي ، وعلى توريد بعض الأسلحة ، التي تساعد على حماية أنفسهم ، من الانتفاضات الشعبية .

وعندما لاحظ الحكام السوفييت ، أن خط الرجعة ، قد قطع على هؤلاء الحكام ، وأنهم أصبحوا في موقف يتعسر معه مهادنة القوى الغربية ، بدأوا يتقدمون على صعيدين :

– دولي ؛ بعقد المعاهدات والاتفاقيات السرية ، التي تحكم ربط هذه البلاد بعجلة الاتحاد السوفيتي .

– وشعبي ؛ بالضغط على السلطة ، لتسمح لعملاء الشيوعية بالتحرك بين الجماهير بحرية ، ولتمكينهم من تولي المناصب الحساسة ، في مجالات التربية والأعلام ، والمؤسسات الاقتصادية . . . الخ .

استغل عملاء الماركسية وضع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ، فتغلغلوا في طبقات المجتمع عن طريق السيطرة على وسائل الأعلام ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحاً كبيراً ، اللهم إلا التأثير على حفنة قليلة في الأوساط العمالية ، وبين شباب الجامعات ، فاضطروا إلى إيهام العامة – وللأسف وقع في هذا الفخ بعض المفكرين وعلماء الدين – بأن الشيوعية لا تحارب الإسلام ، وكانت هذه مجرد مناورة ، تخفي وراءها الحقيقة الصارخة ، فالشيوعية كانت – وما زالت ، وستظل – تحارب الإسلام ، لأن فلسفتها تقوم على إنكار وجود الله – كما شرحنا ذلك سابقاً – ، ولا زال دعائها ملتزمين بهذه الأيديولوجية ، التي وضع « ماركس » أسسها ، فقد نشرت الجمعية الاتحادية ، لنشر العلوم السياسية والفنية في موسكو في عام ١٩١٨م كتيباً (ترجم هذا الكتيب إلى العربية ، ووزع في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فقد أطلعني أحد الطلبة

في جامعة أحمد بللو بنيجيريا ، على نسخة منه ، وأخبرني بأنه يباع في العاصمة « لاجوس ») بقلم « كليموفيتش » تحت عنوان :

« الإسلام : نشوءه ومستقبله » جاء فيه :

« إن شعوب الاتحاد السوفيتي العائشين مع بعضهم ، بمودة وأخوية ، تغلبوا على التأخر الاقتصادي والثقافي ، الذي كان مسئولاً عليهم في الماضي ، وأحرزوا تقدماً اقتصادياً لم يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية .

وقد تغير أيضاً المظهر الأدبي للشعب السوفيتي ، فأصبحت تعاليم « ماركس » و « لينين » العظيمة ، الخاصة بطبقة العمال أساساً - لا ينقض - لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية . ولكن لا يمكن الإنكار بأنه لا يزال راسخاً في ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالي ، التي لا تلائم المظهر التقدمي للشعب السوفيتي المستند على العلم والاختبار . إن محاربة هذه البقايا ، التي لا تختص بطبقة معينة من الشعب في بلادنا ، هي جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى في وقت تتحول فيه تدريجياً من الاشتراكية إلى الشيوعية . ومن ضمن هذه البقايا ، الخرافات الدينية المخالفة للعلوم .

« ويمثل الدين الإسلامي إحدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى في القوقاز ، والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك في بعض مناطق الجمهوريات السوفيتية ، الفيدرالية الاشتراكية الروسية .

« وينتشر هذا الدين في الخارج ، وعلى الأخص في عدد من البلاد الآسيوية والإفريقية » .

ولم يكتف « كلیموفیتش » بهذا ، بل هاجم القرآن والسنة النبوية هجوماً مباشراً حيث قال :

« يعتبر القرآن والسنة ، والشریعة كتب الإسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب في القرون الوسطى ، في زمن سيادة الإقطاع ، وتبرز هذه المؤلفات ، الجو الطبقي ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات ، الدلیل الوحيد على الماضي الأليم ؛ إذ لا تزال مبادئها ، تطبق كقوانين في البلاد ، التي تتخذ الإسلام دينها الرسمي » .

ثم یبین الموقف الحقيقي للشیوعیین في بلاد الإسلام فيقول :
« قد اختلف التقدمیون الشرقيون في آرائهم کلیاً مع تعالیم القرآن » .

ویرمي بالتأخر كل من یتمسك بالتعالیم الدينية :
« ويجب الملاحظة هنا بأن أي دفاع عن الأفكار الدينية ليس إلا مجهوداً لمعاوضة التأخر الاجتماعي ، الذي أصبح - أو على وشك أن يصبح - من ذکریات الماضي ، وادعی أن الإيمان باله لا قيمة له في المجتمع :

« ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة ، بأن الاعتقاد بإله له قيمة في الحياة الاجتماعية ، وأوضح « لینین » المعنی الحقيقي لهذه البيانات ، فقال :

« إن فكرة وجود الله ، كان مفعولها دائماً ، إخماد الحس الاجتماعي ، وتبديل شيء حي ، بشيء ميت ، وما هي إلا عبودية من أسوأ الأنواع ، ولم تربط فكرة الله الفرد بالمجتمع ، بل قيدت الطبقات المظلومة بالاعتقاد بالهية الظالمين » .

ثم أفصح عن مراده ، ألا وهو بيان أن الإسلام يقف حجر عثرة في سبيل نشر مبادئ الشيوعية :

« ويستنتج من دروس تاريخ ظهور الإسلام ، وماهيته الاجتماعية بأنه كغيره من الأديان الأخرى ، عبارة عن فكرة محافظة ، تناقض العلوم ، وتغل أيدي الناس عن النشاط والإقدام على العمل المثمر ، وتعارض نشر المبادئ السوفيتية الحيوية في العالم ، أي « الماركسية » ، و « اللينية » ، ويمكن نسب تلك المميزات إلى جميع عقائد وطقوس الإسلام ، وأعياده العديدة ، وصيامه وزياراته للأماكن المقدسة ، وعبادة الأئمة ، وغيرها من العادات . وتتعلق جميع هذه القواعد والعادات ببقايا الآراء الشرقية القديمة ، القائلة بعزل الإنسان عن الإنسان ، والمشبعة بالفكرة الضالة ، المضرة ، بأن الله هو الذي يضمن برحمته حياة هادئة ، ومرفهة للبشر ، لا اجتهاد الإنسان » .

وأوضح أن الشيوعية مستمرة في كفاحها ضد الدين :

« ويستمر الحزب في الكفاح ضد المعتقدات الدينية ، باعتبارها منافية للفكرة العلمية عن الدنيا .

« ومن المستحيل إحراز التقدم الحقيقي ، قبل التغلب على البقايا الدينية ، وغيرها من الآراء ، التي أصبحت بالية ، وكذلك النظريات ، التي تضلل ذهن الإنسان .

« إن الغاء الدين ، الذي ما هو إلا سعادة وهمية للناس ، عمل ضروري لجلب سعادتهم الحقيقية » .

ولا يقصد بهذا الكتاب التأثير على المسلمين ، الذين يعيشون في الاتحاد السوفيتي ، فقد تم إبعاد الشباب عن الدين كلية ، فأصبح ملحداً كله بلا استثناء . يقول أحد الشيوعيين ، الذين كفروا بهذا المذهب :

« . . . كان التنظيم الثالث ، الذي كنت عضواً فيه - كما كان ينتمي إليه كل أعضاء منظمة الشباب في المعهد - يسمى « اتحاد الملحدون المناضلين » . فقد هذا التنظيم أهميته كلية ، وأصبح لا لزوم له . . . فقد كانت مهمة هذا التنظيم بالنسبة لنا - أعضاء منظمة الشباب ، والطلبة - لا مكان لها من الناحية العملية ، فقد تربينا ، دون أن نتلقى درساً دينياً ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب . وأقل ما يتصور أن مهمة هذا الإلحاد لم يعد لها وجود ، إنني لم أقابل - في مدى العشر سنوات التي عشتها في الاتحاد السوفيتي - إنساناً واحداً من جيلي ، ليس ملحداً » .

وإنما يقصد به محاولة نشر الإلحاد في البلاد الإسلامية عن طريق تداول مثل هذه الكتب بين الشباب ، الذي وقع فريسة

الدعاية الشيوعية ، التي أوهمتها في بادئ الأمر أن الشيوعية لا تحارب الإسلام ، حتى إذا ما انخرط في التنظيم ، واستولت الدعاية البراقة على مشاعره ، أعطيت له هذه الجرعة ، لتفصله كلية عن تقاليدته ، وتدفع به إلى دوامة الماركسية . وليس من السهل عليه التراجع ، كما أنه ليس من اليسير على نفسه الكفر بالماركسية ، إذا أظهرت له الأيام ، أن واقع تطبيقها يخالف ما جذبته إليها من شعارات .

لقد انطلق مؤلف الكتاب - في هجومه على الإسلام - من مبادئ ، اتخذتها الدعاية الشيوعية ، وسيلة لجذب الشباب إلى صفوفها ، وهي :

التقدمية ، والعدالة الاجتماعية (أو إلغاء الطبقات) ، والحرية ، والوعد بغد أفضل (أي جنة على هذه الأرض) .

فاذا ما بينا خداعها في ذلك ، ظهر افتراء « كليموفيتش » وتضليله :

التقدمية :

يدعي الشيوعيون أنهم « تقدميون » ، ويرمون كل من يعارضهم بالتأخر والتخلف ، وقد تأثر كثير من شبابنا المعاصر بهذا المبدأ . غير أن الحقيقة خلاف ذلك ، لأن الظروف التي دفعت « ماركس » إلى التفكير في هذا المذهب ، هي وضع أوروبا الغربية الاقتصادي في القرن التاسع عشر الميلادي ، وهي :

- تركز الأموال في يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، الذين ساعدتهم تقدم الحضارة المادية على الاستمتاع بأموالهم بشتى الأساليب .

- ونقص أجور العمال ، وفقد الرعاية الاجتماعية والصحية لهم ، فعاشوا في جهل مطبق ، تفتك بهم الأمراض جسمانياً ، ويهلكهم الحرمان ، وضيق العيش نفسياً حين يرون الدنيا في بهجتها لدى أصحاب المصانع ، ويتطلعون إلى المال وهو يسيل بين أيديهم - ذلك المال الذي حصل عليه هؤلاء بمجهود العمال الشاق - دون أن يحركهم الضمير للضيق والاهمال ، والشقاء ، الذي يعيش فيه العمال .

استغل « ماركس » هذه الظروف ، فدعا إلى إثارة حقد العمال على أصحاب رؤوس الأموال وحرص على الإضرابات ، وحث على الانقلاب والإطاحة بأصحاب رؤوس الأموال في الصناعة ، وبالنظام السياسي في الحكم ، الذي يحميهم ، ويحمي استغلالهم .

فهل يسود هذا الوضع في مجتمع غرب أوروبا اليوم ؟

« إن التقدم الاجتماعي الذي طرأ على المجتمع الصناعي في الغرب في القرن العشرين - وبالأخص منذ بداية النصف الثاني منه - قلل كثيراً من الفجوة في العيش ، والمتعة بالحياة والنظرة إلى الإنسان التي ساءت على عهد فلسفة ماركس .

« فزيادة الأجور والخدمات العامة المتنوعة ، وتحديد ساعات العمل اليومي ، والأسبوعي ، والإجازات السنوية ، والتأمين

ضد العجز والشيخوخة ، وفرصة التعليم في المراحل المختلفة ، التي تهيأ لأبناء العمال في المصانع . . . وغيرها تكاد تجعل المصنع شركة بين العامل وصاحبه ، وليس بينهما فارق إلا أن أحدهما يستخدم كل طاقاته في الإدارة ، والثاني يستثمرها في الإنتاج .

وإن التقدم التكنولوجي منذ الحرب العالمية الثانية ، كاد لا يدع لشقاء الإنسان بكده في العمل ، وباستهلاك طاقاته البدنية مكاناً ، وأخذ يضع الإنسان اليوم في وضع صاحب الحركة بعقله قبل قدميه ، وبتفكيره وعلمه وفنه قبل يده وساعده .

« وقد حلل كاتب ألماني مدى تأثير العمل بالآلية في الصناعة في المجتمع التكنولوجي المعاصر وتساءل :

« هل انتشار الآلية سيزيد في البطالة في العمل ، أم سيخلق فرصاً أخرى جديدة واسعة في مجالات الكسب ، والعمل معاً ، تستلزم حتماً زيادة في عدد الموظفين الفنيين ، وإن كانت ستقص من عدد العمال العضليين ؟

« وإذا كانت نتيجة التوسع في المجال الآلي في الصناعة والخدمات معاً ، هي زيادة الثقافة الفنية لمواطني المجتمع المعاصر التكنولوجي ، وبالتالي زيادة عدد الموظفين عن العمال ، وانكماش الثقافة العمالية التقليدية المحدودة ، وبالتالي انكماش عدد العمال اليدويين . . . فان ذلك ينذر ببدء انتهاء عهد النقابات العمالية ، التي جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال ، وأصحاب رؤس الأموال ، على عهد الثورة الصناعية ، منذ بداية القرن

التاسع عشر . ومعنى ذلك أن فلسفة « العمل » التي قامت عليها الفلسفة الماركسية ، ونظام الحكم الماركسي – اللينيني فيما بعد . . . ستفقد أهميتها في المجتمع المعاصر ، وستنتهي قيمتها كلية عند انتشار الآلية في الصناعة ، والخدمات في مجتمع الغد .

والاشتراكية في نظام الحكم التي تعطي السيادة للعمال التقليديين ، وتعدّهم بالحكم في المجتمع . . . لا يصبح أمرها محتملاً ، ولا تصبح سيادتها ضربة لازب في المجتمع العلمي ، كما تبشر الماركسية ودعاة الانقلاب والثورات الاجتماعية .

إن « كارل ماركس » قد ربط تفكيره الفلسفي بأوضاع القرن التاسع عشر . . . فاذا نودى اليوم في المجتمعات الماركسية . . . (أو في المجتمع الإسلامي) بـ (التقدمية) في نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضاً ثورة الطبقة العاملة ، فذلك ينطوي على دعوة إلى رجوع بـ (التطور الاجتماعي) والتكنولوجيا ، والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن ينكشف الظلم في استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد في الهوة السحيقة في وضع كل من العامل ، وصاحب رأس المال في الحياة ، والشقاء ، والاستمتاع فيها . . . وعندئذ فقط يكون لفكر « ماركس » مكان في حل ما بين العامل ، وصاحب رأس المال من مشاكل ، هي مشاكل الظلم والانحراف في استثمار المال .

فاذا وصف (كلیموفتش) – والماركسيون – التمسك بالدين بأنه « رجعية وتخلف » فلا ينطبق هذا الوصف إلا على الماركسية ،

لأن « صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، إذ هو للطبيعة ، بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفي أي وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف في السلوك ، سواء في المال ، أو في العلاقات البشرية ، بينما الفلسفة الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع اجتماعية معروفة ، خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهي ظروف القرن التاسع عشر ، والثورة الصناعية التي تبدلت تماماً في القرن العشرين».

من أحق بوصف الرجعية ، أهو الماركسي ، الذي يدعو إلى فلسفة ، ارتبطت بأوضاع انتهت ، أم المتدين ، الذي يتمسك بتعاليم تتعلق بتقويم أخلاق الإنسان ، والإنسان هو هو لم يتغير عن الماضي ، ولن يتبدل في المستقبل ؟

الغاء الطبقات :

من الشعارات التي ينادي بها الماركسيون ، أن الفلسفة الماركسية ، تدعو إلى نقل الملكيات إلى الدولة ، كي تزول الفوارق بين الأفراد ، فيتساوى الكل في الانتفاع بالدخل القومي .

وقد جذب هذا الشعار عدداً كبيراً من الطبقة العمالية والأوساط الفقيرة ، فتعاطفوا مع دعاة الماركسية - أو انضموا اليهم - في البلاد العربية ، إلا أن واقع البلاد التي تطبق الماركسية ، يكشف النقاب عن الخداع في حمل هذا الشعار ؛ فالطبقة موجودة ، في الاتحاد السوفيتي ، بصورة أفظع مما هي في المجتمع الرأسمالي

فليس لأصحاب الطبقة الدنيا من فرص في الحياة مثلما لأصحاب الطبقات الأعلى ؛ فلا يتساوى أولادهم في مجال التعليم ، يصف « ليوتنهارد » حالة الطلبة في معهد المعلمين العالي في موسكو ، بعد أن صدر قرار في ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠ بقطع المنح الدراسية عنهم أثناء الحرب ، فيقول :

« رأيت في تلك الأيام عيوناً باكية ، إذ حتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا . وكان الموقف الدرامي ، الذي تأثرت به بنوع خاص ، وداع طالب أحمر الشعر ، ينحدر من أسرة فقيرة ، تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهداً في دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم ، والقيام بالواجبات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرساً لتلاميذ المرحلة المتقدمة في المدارس ، وكانت تبدو عليه - قبل صدور هذا القانون - علامات السرور ، كلما تذكر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله .

« ولكن لم يكن الطالب الوحيد ؛ فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد - لأنهم من أسر فقيرة لا تستطيع أن تصرف عليهم - في ازدياد مستمر . والحقيقة أنه لم يبق في المعهد إلا أبناء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار .

ثم بين أن تولي الوظائف العليا في الاتحاد السوفيتي ، كان مقصوراً على خريجي المعاهد العليا ، وبصدور هذا القرار ، أصبحت - تلقائياً - مقصورة على أبناء الطبقة الحاكمة :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة ، التي تكونت منذ نهاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير - امتدت من ١٩٣٦م - ١٩٣٨م - التي أطاحت بـ « المجموعة القديمة » ، بدأت في عام ١٩٤٠م في اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها في الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى ، نحو جعل السلطة ، والامتياز الطبقي وفقاً على أبنائهم يرثونه من بعدهم . »

بلغ الامتياز الطبقي في المجتمع الشيوعي ، أقصى ما يتصور العقل وجوده في أي مجتمع آخر ؛ فبينما تذكر الأنباء أن « تشرشل » كان يعيش أثناء الحرب مثل مواطنيه ، ينقل لنا « ليونهارد » صورة أخرى عن حياة الطبقة العليا في الاتحاد السوفيتي :

« لم يشعر أعضاء الحزب ، ولا كبار موظفي الحكومة ، ولا العاملين في المؤسسات الاقتصادية بنقص في المواد الغذائية في بيوتهم في هذا الوقت العصيب ، بل كانوا يعيشون كما لو كنا في حالة السلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شيء من المحلات المتوارية خلف الكواليس .

وبجانب هذه المحلات المقصورة على « الطبقة الممتازة الخاصة » ، وجد أيضاً أماكن خاصة للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط ، وأفراد الطبقة المتوسطة « المفضلة » ، الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقي في الحزب لم يمكنهم من الوصول إلى منابع ، التي توزع على « الطبقة الممتازة الخاصة » .

أما بقية الشعب ، فكان مجبراً أن يعيش على أي كيفية» .

كذلك ظهرت المعاملة الطبقيّة في الاتحاد السوفييتي مع عملاء الماركسية من الدول الأخرى ، فقد تكون ما يسمى بـ (جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية) ، وعومل أعضاؤها - وهم من جنسيات مختلفة - معاملة متفاوتة :

« . . . وكما وزع هؤلاء على أماكن السكن طبقاً لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحاً بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى ؛ فكل الأعضاء ، الذين كان نشاطهم داخل الجبهة في المقر الرئيسي كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يومياً في مبنى العمل ، وهو قصر الجوّالة سابقاً ، والزعماء الكبار ، الذين كانوا يقيمون في الفندق الجميل (بشكيرية) ، كانوا يحصلون - بالإضافة إلى الوجبات الثلاثة - على طرد كبير ، مليء بأنصاف الفواكه ، والحلوى ، ويرسل إلى محل إقامتهم .

أما الباقيون من أعضاء الجبهة ، فيحصلون على ما يحتاجون إليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد في الدور الأرضي لفندق « بشكيرية » ، يحصلون على الوجبات الثلاثة ، وعلى مقدار ما يأخذونه عامل في بطاقة التموين ، وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة .

كان هذا وضع العاملين في جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة ما يقدمه في العمل السياسي ، نظام التقسيم إلى

طبقات في كل شيء ، في السكن والأكل ... و ... و ... الخ
طبقة تعلو الأخرى ، حتى القمة » .

لم يكن هذا التمييز قاصراً على المجتمع السوفيتي ؛ ولكنه يطبق في كل دولة ، قلدت روسيا في تطبيق الشيوعية ، يصف الشيوعي القديم (ليونهارد) التمييز بين طبقات الحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية فيقول :

(كان تمييز القياديين ، وتفضيلهم على الآخرين ، إحدى المساوئ الكبرى ، والسبب الدائم « للمغص السياسي » ، فلم أعرف أنا وأصدقائي - الذين نشأنا في الاتحاد السوفيتي - هناك شيئاً آخر ، ولم نر في بادئ الأمر غضاظة في التفضيل المادي لقادة الحزب في الدولة ، وفي المجالات الاقتصادية : نعم ! تبين لي قبل ذلك - في عام ١٩٤٢م في « كاراجندا » - أن من الظلم أن يكون هناك في زمن الحرب ، فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمال - وكذلك أيضاً كثير من أعضاء الحزب - يعانون من ألم الجوع القتال ، بينما لا يشعر بعض القياديين بأي نقص في المواد الغذائية عندهم ، ولكنني اعتبرت تفضيل القياديين بأنه مبالغة فقط ، وليس هو الحقيقة بذاتها .

دفعت مصادفة إلى التفكير في هذه المظاهر ، كنا في أكتوبر سنة ١٩٤٥م في بداية الحملة الدعائية الكبيرة للوحدة (وحدة الأحزاب الألمانية في حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني) . كنت آتياً من مكثبي ، وأردت الذهاب إلى صالة الطعام في اللجنة

المركزية ، فاستوقفني على السلم رجل حسن المظهر والملبس ،
متوسط العمر ، قائلاً :

— لا تؤاخذني أيها الرفيق ! هل تعمل هنا ؟

— نعم ! في قسم الدعاية السياسية .

— هذا ما أريده بالضبط ، فأنا عضو في الحزب الشيوعي في ألمانيا
الغربية ، جئت إلى هنا بناء على دعوة وجهت إلي ، وقد تسلمت
منذ لحظة « ماركة » للأكل ، ولكنني لا أعرف أين صالة
الطعام !

— هذا يتوقف على نوع « الماركة » التي معك .

نظر إلي مندهشاً ، ثم أطلعني على نوع « ماركته » ، لقد كانت
واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى « للعاملين غير المهمين »
فشرحت له كيفية الوصول إلى مكان تناوله الطعام .

— أخبرني ! هل يوجد أربعة أنواع مختلفة من « الماركات » ؟

— طبعاً يوجد أربعة أنواع مختلفة من الماركات ، تبعاً لعمل
القيادي ، فالاثنتان الأخيرتان هما للعمال الفنيين والمستخدمين .

— نعم ! ولكن ... أليس الكل رفقاء ؟

— طبعاً ! أيضاً عاملات النظافة ، والسائقون ، والحراس ، كل
أولئك أعضاء في الحزب ، انضموا إليه بعد اختبار .

نظر إلي فرعاً ، ثم قال :

– ماركات مختلفة ، وطعام مختلف . . . ولكن الكل رفقاء ! ! !
أدار ظهره دون أن يجيني ، وذهب . . . وبعد لحظات ، سمعت
صرير الباب الرئيسي . . . لقد غادر مبنى اللجنة المركزية .

اتجهت إلى صالة الطعام ممعناً التفكير فيما حدث ، فاخترقت
الحجرات التي تتناول فيها الطبقتان رقم ٣ ، ٤ – وهما السفليتان –
طعامهم ، فاعتراني شعور بالانقباض ، عندما فتحت باب القسم
الخاص بطبقتنا . فهنا – على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء –
يتناول العاملون من الطبقة العليا طعامهم المكون من أصناف متعددة..
غريب أني لم ألحظ ذلك قبل اليوم قط ! ! » .

ثم يستطرد في وصف حياة القادة في « فلهم » الفخمة ، وفي
بيان الطبقة في الامتيازات المادية ، التي تقدم للقياديين في الجهاز
الاداري ، والاقتصادي ، وللعلماء ، والاختصاصيين ، والشعراء ،
والفنانين ، ويعلق على ذلك بقوله :

« لم يصدر بيان رسمي بذلك إطلاقاً ، فاذا تحدث المرء مع
« أحد المخلصين للنينية » حول هذا الموضوع ، يجيبه ببساطة :
« حماة الدولة ! فالرفقاء يكلفون بعمل كبير ، ولذا فمن المسلم به
أن يتخلصوا من الهموم المادية » . من الممكن أن يكون هذا صحيحاً
ولكن . . . ألم يكلف العمال في المصانع والمناجم ، والقياديون
من الطبقة الدنيا « الذين لا يحصلون على هذه الامتيازات » أيضاً
بعمل شاق ، يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟ . »

هذا هو المجتمع الشيوعي ، طبقات ، بعضها فوق بعض ،
لا على أساس قوى الفرد الذاتية ، ولكن طبقاً لولائه للحزب .

فالدولة - وهم أفراد قلة - صادرت الأموال ، مدعية أنها ستزِيل
بذلك فوارق الطبقات ، فاذا بها تتحكم في مصير أفراد الشعب ،
تتختم عملاءها بالأموال ، وتترك الآخرين يصارعون البؤس
والفقر والحرمان ، بعد أن سلبتهم أموالهم ، وسدت في وجوههم
طرق تحصيل الرزق .

* * *

أما الإسلام ، فقد عالج مشكلة تكديس المال بأسلوب يقضي
على الطبقة ، ويحول دون ظهور الحقد الطبقي في المجتمع ،
فالمسلمون أمة واحدة :

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) . (١)

يشعر الأفراد فيها بأنهم جسد واحد ، يتألم كل لما يصيب أخاه
من سوء ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثل
الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر
والحمى » .

ولا يقف الأمر عند الشعور ، بل هو مسئول عن تخفيف
الآلام عن أخيه ، بإزالة أسبابه سواء كانت نفسية أو مادية .

فأزال الإسلام التوتر النفسي ، الذي قد يحدث لبعض الأفراد ،
عندما يفكر في وضعه الاجتماعي ، يقول الله تعالى :

(١) الأنبياء ٩٢ .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . (١)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ اللَّئِيمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) . (٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« أوحى إلي أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد » .

وقضى على حقد الفقير نحو الغني ، ففرض له نصيباً من ماله ،
يقول تعالى :

(ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ أَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) . (٣)

ويقول :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) . (٤)

وتوعد الغني الذي لا يعطي الفقير حقه من هذا المال ، فقال
تعالى :

(١) الحجرات ١٠ .

(٢) الحجرات ١١ .

(٣) الحديد ٧ .

(٤) المعارج ١٩-٢٥ .

(. . .) وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ
 بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
 فَدُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (١).

كما حرم الربا حتى لا يتحكم الأغنياء في رقاب أصحاب
 الحاجة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أراد الإسلام أن يجعل
 مستوى المعيشة متقارباً بين المسلمين ، فحارب الترف ، يقول الله
 تعالى :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (٢)

بل بين أن الترف قد يؤدي إلى هلاك المجتمع ، يقول الله تعالى :
 (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ
 عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا .) (٣)

فوجوب الزكاة ، وتحريم الاكتناز والترف والربا ، أسس
 يراد بها رفع مستوى الطبقات الفقيرة ، وخفض مستوى معيشة
 الأغنياء لتكون الحياة سعيدة بتقاربها وتناسقها .

« فتحريم الترف يوجه المال إلى إنتاج أكثر فائدة للجميع ،
 وتحريم كثرها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا ، يؤدي إلى

(١) التوبة ٣٤-٣٥ .

(٢) الأعراف ٣١ .

(٣) الإسراء ١٦ .

المشاركة فيها . وإذا لم يجد الناس في الترف لذتهم وجاههم ،
وجدوها في الإحسان والبر . وإذا لم يجدوا في الكثر ضماناً لهم ،
وجدوه في ضمانه المجتمع الإسلامي المتكافل ، الذي لم يهمل أحداً ،
ولم يحتقر أحداً ، وإذا لم يجدوه في الربا ، وجدوه في لذة الكسب
والمشاركة مع إخوانهم الذين يعملون في أموالمهم » .

لم تقف هذه التعاليم عند حد النصوص ، بل طبقها المجتمع
الإسلامي في القديم والحديث ، والكتب طافحة بالأمثلة التي تؤيد
ذلك ، وسأكتفي هنا بسرد مثالين - يتعلقان بموضوعنا - يبينان
مدى تطبيق التعاليم الإسلامية في هذا المجال قديماً وحديثاً :

الأول : قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذر رضي الله عنه
عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هم إخوانكم وخولكم ،
جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم
فان كلفتموهم ، فأعينوهم عليه » .

الثاني : يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام في كتابه « الرسالة
الخالدة » :

« وقد شهدت في بعض الجماعات الإسلامية ، التي احتفظت
بتقاليد المسلمين تضامناً وتكافلاً لا نظير له ، لا يتمنى المصلح
الاجتماعي أحسن منه لأية جماعة بشرية . رأيت بعض قبائل

(الطوارق) في شمال إفريقيا ، يحيون حياة هذا التكافل السعيد ،
فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وإنما لجماعته ، وأفخر ما يفخر
به ويعتز ، هو ما يصنع لهذه الجماعة ، وأول ما لفت نظري
لحالتهم هذه ، أن رجلاً من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ، ونزل
بينهم في فزان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج يطلب
الرزق ، ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته في جوار هذه
الجماعة الإسلامية . غير أن النحس لازمه ، ولم يستطع كسباً ،
فجاءنا في (مصراته) يستمدنا فأعناه ليعود إلى أهله ، ولكنه عاد
إلى بعد نحو سنة مرة أخرى ، فظننت أنه رجع من أهله ، فقال :
لا ، وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي ، فقلت : وكيف ذلك ؟
قال : بعد لقائنا الأخير ، اتجرت بما حصلت عليه ، وأصبح الآن
في يدي ما أعود به إلى جماعة الطوارق . فقلت : إلى أولادك
أم إلى جماعة الطوارق ؟ قال : إلى الطوارق أولاً ، فهم آووا
أولادي في غيبتني ، وأنا سأكفل أولاد من أجده غائباً منهم ،
وأقسم ما أعطى الله بين أولادي وأولاد جيراني) .

فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرائك؟

قال : كلنا في الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ،
والواحد من جماعتنا يستحيي أن يعود إلى النجع خالياً ، لأحياء
من أهل بيته ، بل حياء من جيرانه ، الذين ينتظرون عودته كأهل
بيته سواء بسواء . ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من
أهل البادية ، وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ، ولا هي

من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هي الروح الإسلامية أكثر ظهوراً في هؤلاء الذين لا يزالون بمعزل من الحياة الحديثة المادية . وقد وجدت هذه الروح في الدساكر والقرى الإسلامية ، التي لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلامي ، سواء أكان أهلها عرباً أم عجماء ، بيضاً أو سودا ، في المشرق أم في المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها ، لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن ، والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح ، كما أرادته صاحب الدعوة من عشرات الملايين ، الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ، ولو انقرضت جماعتهم ، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم ، فضلاً عن جيرانهم .

الحرية :

يتحدث « الماركسيون » في دعايتهم في العالم العربي عن الحرية السياسية للفرد ، وعن الديمقراطية الشعبية ، ويربطونها بمسألة « رأس المال » ؛ إذ يدعون أن الحرية لا تتحقق إلا بسيادة « المبادئ الماركسية » في المجتمع ، لأنها تؤمم رأس المال ، وتنقل ملكيته للدولة ، وبذلك تحرر العمال والأجراء - في الأراضي الزراعية - من سيطرة أصحاب رؤس الأموال والإقطاعيين ، فيصبحوا أحراراً في الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات العامة .

إذاً ، فالماركسية ترى أن أصحاب رؤس الأموال ، والإقطاعيين هم وحدهم الذين يستعبدون الشعب ، فيسخره ، ويجلدوه

بالسياط ، وفي ذلك إهدار لكرامته الإنسانية ، ويجبروه بشتى أساليب القوة ، إلى الإدلاء بصوته لمن يريدون .

فهم الأعداء الحقيقيون للشعب .

أما الدولة في النظام « الماركسي » - حيث آلت الملكيات إليها - :

فهي الأب الحنون الأعلى للمجتمع .

وهي صاحبة العدالة الاجتماعية .

وهي الراعية للكرامات والقيم الإنسانية .

وهي الضامنة ، والمتكفلة للجميع بحياة أفضل ، وحرية غير مقيدة .

ولكن واقع المجتمعات الشيوعية يخالف ذلك ! إذ عندما تحولت الملكية الخاصة إلى ملكية عامة ، وأصبحت الدولة هي المالكة ، انتقلت صلاحية التصرف في المال إلى حفنة قليلة ، هم أعضاء اللجنة المركزية في الحزب .

فكيف تصرف هذه الحفنة في مال الأمة ، التي اغتصبته من الأفراد ، ووضعت تحت يدها ؟

وضح الإنحراف في هذا التصرف وضوح الشمس ، فقد أنفق المال على « شلل المحاسيب » ، في متعهم في القصور والرحلات

وفي الترف من كل الألوان ، وعلى الأفاقين والمنافقين ، وعلى أجهزة المخابرات ، لتصيد المعارضين للنظام ، وعلى القوات المسلحة لاتخاذها وسيلة للبطش بمن تسول له نفسه معارضة السلطة الحاكمة .

فأين هي - إذن - الحرية التي يدعيها الماركسيون ؟

نشر « النظام الماركسي » الرعب والخوف لدى الأفراد ، حتى أصبح الإنسان لا يطمئن إلى صديق أو أخ ؛ فأجهزة المخابرات - التي يصرف عليها من أموال الشعب - جندت الصديق للتجسس على صديقه ، والأخ على أخيه ، والابن على أبيه . يروي « ليونهارد » أن صديقة له ، جندتها المخابرات للتجسس على زملائها ، وروت له ذلك بعد أن أخذت منه العهد والميثاق بألا يبوح بهذا السر قائلة :

« أنا أعمل مع المخابرات العامة ، فمند بضعة أيام طلبوني ، وأجبروني على التوقيع على ورقة مكتوب فيها إنني مستعدة أن أزودهم بالمعلومات ، التي يطلبونها ، وألا أقول لأحد شيئاً عن مهمتي .

والآن ! أنا مكلفة بكتابة تقارير بصفة مستمرة عن بعض طلبة معينين ، ولن أوقع على هذه التقارير باسمي الحقيقي ، بل باسم مستعار ، معروفة به عندهم في مجال هذه المهمة .

- عن أي شيء تكتبين تقاريرك ؟ . . عن الكلام ضد الحزب ؟

- ليس هذا فقط ، فهذا قليل نسبياً !! بل مكلفة بالكتابة
عن « كل شيء » يصدر من الأشخاص ، الذين سموهم لي ، سواء
تعلق بالسياسة مباشرة ، أو بطريق غير مباشر .

.....

نظرت في عينيها ، فلاحظت أنها حزينة جداً ، حزينة لأنها
لم تعد تستطيع التحدث معي بصراحة ، ذلك الحديث ، الذي كان
يخفف عنها كثيراً من الآلام النفسية ، ولم يكن هذا هو السبب
الوحيد في حزنها ، بل بدا أيضاً - بصفة خاصة - أنها متضايقة
نفسياً ، لأنها أجبرت على العمل مع المخابرات العامة ، وقد
أحسست هذا بوضوح . ولكن عندما أفصحت لي عن كل ما في
نفسها ، علمت أنها لم يكن لها أن تختار طريقاً آخر ؛ لو رفضت
العمل مع المخابرات العامة ، لآثرت الشكوك حولها ، ولربما
ترتب على رفضها القبض عليها . . . ثم قررت - ابتداء من اليوم -
أن أكون أشد حرصاً من ذي قبل ، وأن ألتزم « الخط » التزاماً
دقيقاً في كل المحادثات ، وإذا أمكن فلأحاول تغيير مجرى الحديث
بعيداً عن الموضوعات السياسية ، وطرق المجالات ، التي لا تمس
هذا الموضوع من قريب أو بعيد .

هذه هي الحرية في المجتمع الشيوعي ، في الاتحاد السوفيتي !!

* * *

أما الإسلام فقد كفل حرية الإنسان في العقيدة :

« لا إكراهَ في الدينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (١) .

وشرع حماية أرباب الملل الأخرى ، الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ، وألزم المسلمين أن يقاتلوا لحماية حرية العقيدة ، وقدسية أماكن العبادة لمن دخلوا في عهدهم وجوارهم من أهل الكتاب .

كما كفل الحرية السياسية ، والحرية الفكرية ، والحرية المدنية ، وخطا بها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها .

ولا يزال التاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة ، وقعت في عهد الخلفاء الراشدين ، وحتى في العهود التي تلت عصرهم ، بعد أن تحولت السلطة إلى ملك عضوض ؛ فقد كان المسلمون في أيام عمر بن عبد العزيز يناقشون في حضرته استحقاق بني أمية للملك والخلافة ، وكذلك روى أنه كان يجري في مجالس المأمون نقاش حول بيت الخلافة ، وأحقية بها .

امتدت جذور الحرية في المجتمع الإسلامي ، فلم يضطهد أحد ، نظر في الكون ، واستنبط نظرية من النظريات ، فكانت الحرية العلمية مكفولة لغير المسلمين من صائبة ومجوس ونصارى ، ويهود ، يقولون ويكتبون ما يشاؤون ، شأنهم في ذلك شأن المسلمين . ولم تتدخل الدولة ، فتمنع مفكراً من إبداء رأيه ، إلا خشية الفتنة على المجتمع ، أو كان تهديداً لأمن الدولة .

(١) البقرة ٢٥٦ .

الوعد بغد أفضل :

تجاهر أبواق الماركسية في البلاد العربية ، بأن الشيوعية سوف تحقق رفع مستوى المعيشة ، إذا ما طبقت ، كنظام للحكم ، رغم أن التجربة أثبتت أنها لم تأت إلا بزيادة في الحرمان ، ونقص في موارد الدولة ، ظهرت آثاره في الخدمات العامة ، وعجز أجهزة الدولة الادارية والإنتاجية ، وتوقف الطاقات البشرية ، فتوقف ركب الدولة عن مسيرة التقدم العلمي الحديث ، بل تقهقر إلى الوراء ، والأدلة واضحة على ذلك ؛ إذ يكفي المرء أن يقيم أياماً في البلاد العربية ، التي حاولت تطبيق مبادئ « ماركس » ، فسوف يرى معالم المحاولة بادية على وجوه شعبها ؛ فقد اختفت الابتسامة ، وحل محلها الاكتئاب من شدة وطأة الفاقة والحرمان .

ومن الغريب أن « الماركسيين » يعللون فشل التجربة ، بأن القائمين على تنفيذها ، لم يكونوا على مستوى المسئولية ، وهذه خدعة أخرى ، يراد بها تضليل جماهير المسلمين مرة أخرى ؛ فالشيوعية لم تحقق « الغد الأفضل » ، الذي وعدت به جماهير العمال في أي بلد في العالم ، فهذا هو ذا الاتحاد السوفيتي « رائد الماركسية » ، لم يستطع تحقيق رفع مستوى العمال ، كما وعدت الدعاية الشيوعية ؛ إذ لا زال مستوى العامل السوفيتي أقل من مستوى زميله في البلاد الرأسمالية ، بل إن حالة بعض العمال في روسيا لا تختلف عن حالته في عهود ما قبل الثورة البلشفية ، يصف « ليونهارد » جانباً من حياة البؤس هناك فيقول :

« هذه هي « كاراجندا » ، مدينة يسكنها ربع مليون نسمة ، مركز الصناعة الذي أقيم في الخطة الخمسية الأولى ! ! محطة السكك الحديدية صغيرة ، مبنية بالخشب ، وقذرة . . . وعندما خرجت من المحطة ، رأيت شارعاً ملتوياً قذراً ، غير مرصوف ، ومنازل صغيرة آيلة للسقوط ، والجو رمادي قاتم ، مملوء بغبار الفحم ، ولا يستطيع المرء أن يتنفس تنفساً عادياً في هذا الجو . سرت في الشارع كالمضروب من هول المفاجأة ؛ فمما لا شك فيه أنني رأيت في موسكو فقراً ، كذلك رأيت عدداً من المدن الصناعية المتوسطة أثناء إقامتي في الاتحاد السوفيتي ، ولكني لم أشاهد حتى اليوم مناظر مؤلمة مثل ما رأيت في هذه المدينة . . . وبعد بضع دقائق من مغادرتي المحطة ، اكتشفت كهوفاً تحت الأرض (تستخدم للوقاية من البرد) ، مغطاة بورق الكرتون ، أو الخشب ، وبعضها ، كان سقفها قشرة أرضية ، لا يتجاوز سمكها نصف متر تقريباً ، وأقيمت هذه السقوف على أعمدة . كان منظرًا مرعباً ! ! !

وكلما رأيت مناطق أكثر في هذه المدينة ، كلما ظهر لي عدم استطاعتي المقام بها ، فلا يوجد فيها معاهد عليا ، ولا معاهد صناعية ، وليس بها سوى كهوف تحت الأرض ، ومنازل من الخشب آيلة للسقوط ، وبعض المنازل المقبولة نسبياً ، انتشرت هنا وهناك ، وتتخذها الإدارات مقرراً لها . ولم يبد لي واضحاً - في يوم من الأيام إطلاقاً - الفرق الشاسع بين أكواخ المواطنين ، التي يخيم عليها البؤس والحرمان ، وبين هذه المباني الحكومية

الجميلة المبنية من الحجارة ، والتي تتكون من عدة طوابق ،
وضوحه في هذا اليوم ، ثم اكتشفت حافلة « أتوبيساً » جديدة ،
سارت بي عبر أحياء ، هي تجسيم للفقر والتعاسة » .

ثم بعد أن يرى الحياة على الجانب الآخر ، حياة الترف والنعيم
التي يعيشها قادة الحزب في أحد فنادق الدولة يقول :

« . . . وبدا التباين شاسعاً بين الجو في هذا الفندق ، وبين
الأحياء القديمة في « كاراجندا » والأكواخ المبنية بالطين للاقطاعيين
المنفيين ، ولا يمكن لعقل تصور إمكان وقوعه ، لو لم يره في
الاتحاد السوفيتي » .

لن يزول الفقر والجوع ، الذي تقاسيه الشعوب التي يحكمها
النظام الماركسي ، إلا بزوال هذا النظام ، لأنهما متلازمان ،
فحيثما وجد الحكام الشيوعيون وجد معهم الحرمان ، وينبغي ألا
نخدع بتحليل أبواق الدعاية « الماركسية » بأن ذلك ظرف طارئ
سيزول ، أو أن الظروف الدولية كانت السبب . . . أو . . .
أو . . . الخ ، لأن حرمان جماهير الشعب من طبيعة النظام نفسه ،
وليس من شيء خارج عنه ، يقول « ليونهارد » :

« حاولت الدعاية السوفيتية - ولا زالت - إقناع الشعب بأن
فقره وجوعه - أثناء الحرب - نتيجة للنظام النازي ، الذي شن
حرباً على الاتحاد السوفيتي ، بينما الوضع بالعكس ، حسبما جاء
في بعض تحليلات الأسرى الألمانين ، فقد نسبوا فقر هذا الشعب

إلى طبيعة النظام السوفيتي ، وهو موجود وسيظل ، ولو لم تشن حرب على هذه الدولة » .

ولاء الماركسيين :

يدين « الماركسيون » في العالم بالولاء التام للاتحاد السوفيتي - أو للصين - ، لأنه عنصر من عناصر دراستهم للماركسية ؛ ففي روسيا مدارس خاصة يتعلم فيها شباب من جميع أنحاء العالم مواد عامة وهي :

تاريخ الحزب الشيوعي الروسي .

المادية التاريخية الجدلية .

تاريخ الشيوعية العالمية .

النظريات الاقتصادية .

ومواد خاصة ، حيث ينفرد طلبة كل إقليم بدراستها .

تاريخ الحركات الوطنية في بلادهم .

المشكلات الإقليمية سواء كانت اقتصادية أو إجتماعية . . .

أو . . . أو . . . الخ .

هذا من الناحية النظرية ، ثم يشترك جميع الدارسين للتدريب

على :

تشكيل الجمعيات السرية ، وأوجه نشاطها ، من طبع منشورات وتوزيعها ، حتى استعمال القوة المسلحة للاستيلاء على السلطة .

وبعد أن يتخرج الطالب ، يرسل إلى بلده ، لينضم إلى التنظيم الشيوعي السري ، ولكنه - مثله في ذلك مثل غيره ممن سبقوه على هذا الدرب - يظل دائماً مرتبطاً بالاتحاد السوفييتي ، في جميع تصرفاته ، يناصر سياسته ، ويبرر مواقفه الدولية ، ويتحرك طبقاً لتعليمات موسكو . يقول شيوعي سابق معقّباً على مناهج تلك المدرسة :

« وهكذا أنتج » الاتصال بين النظري والعملي « هدفاً مزدوجاً ؛ ففي الناحية الأولى وجهنا لاستعمال معلوماتنا النظرية في البلد الذي سنعمل فيه فيما بعد ، وفي الناحية الأخرى تحولنا بطريق الالتزام - ليس فقط نتيجة لدراسة التاريخ السوفييتي ، بل أيضاً نتيجة لمناقشة الأحداث الهامة في الاتحاد السوفييتي - إلى مداومة تتبع الأحداث في الاتحاد السوفييتي ، وإلى تفسير موقف الاتحاد السوفييتي من الأحداث العالمية ، والدعوة له ، والدفاع عنه » .

إن الشيوعي لا يتحرك من بلده من تلقاء نفسه ، بل يتحركه موسكو ، فهو قطعة شطرنج يحركها اللاعب ، وهو هنا زعماء الحزب في موسكو - أو الصين - وقد صرح بهذا الوصف أحد زعماء الشيوعيين في ألمانيا الشرقية لـ « ليونهارد » أثناء حوار دار بينهما حول ربط ألمانيا الشرقية بعجلة الاتحاد السوفييتي ، وكان « ليونهارد » يرى أن العلاقة ، يجب أن تقوم على أساس المساواة بين الدولتين ، لا على أساس تحكم الاتحاد السوفييتي في مصير ألمانيا الشرقية ، واتخاذ موقف الأمر ، وألمانيا الشرقية موقف المنفذ دون اعتراض :

« . . . فلنقف على أرض الحقيقة العارية ! ما معنى المساواة هنا ؟ أعرني انتباهك ! فالنضال الذي انتشر في العالم ، هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة . . وأشار بيده إلى لوحة الشطرنج .

يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان ، أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة ، باختلاف شكلها ، وطريقة حركتها على اللوحة . ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون إلا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط . . . يجب أن نقرب من الموضوع مجردين من أي اتجاه . . . هل لاحظت مرة شيئاً خاصاً في سمات الاتحاد السوفيتي ، واتحاد الجمهوريات السوفيتية ؟ » .

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال ! (ثم استطرد الزعيم الشيوعي يقول) : لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات ، وليس هذا من باب المصادفة ، وبهذا مهد الطريق للبلاد التي تتحول فيما بعد إلى الاشتراكية للانضمام لهذا الاتحاد .

هل تعتقد أننا - إذا وصلت البلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضاً إلى أسس الاشتراكية - نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا تربط بالاتحاد السوفيتي » .

هذا هو هدف الماركسيين ، تسليم بلادهم - بعد الاستيلاء على السلطة - إلى موسكو ، لتكون إحدى الجمهوريات السوفيتية ، وليس هذا التصريح من ماركسي صغير ، بل من زعيم أصبح رئيساً

لجمهورية ألمانيا الديمقراطية فيما بعد . أيمن بعد هذا أن ينخدع
بالدعاية الماركسية إنسان له عقل يفكر به ؟

* * *

يقف المجتمع الإسلامي اليوم - في جميع أقاليمه - على مفترق
الطرق ، يلتقط أنفاسه من هول الطريق ، الذي قطعه على مدى
المائة سنة الماضية ، حيث تجاذبته تيارات أقضت مضاجعه ، فلم
تترك له فرصة البناء والتعمير ، وأهلكت أعصابه ، فلم يعد يقوى
على التفكير بموضوعية فيما يعرض عليه من « أيديولوجيات » ،
ولم يستطع الاحتفاظ بما عنده من عقائد وعبادات ؛ فتهاون فيها
وأهملها ، أو أولها فألغاها ، أو أداها عادة وتقليداً ، فصارت :
صورة لا حياة فيها .

- ومصدرا للرزق والتكسب ، لا عقيدة يدافع عنها بالروح
والمال .

- ووسيلة يخدع الحكام شعوبهم بالتظاهر بها ، لا منارة
يسير على هديها رجال السلطة .

- وأسلوباً يختفي وراءه الدجالون ، والمنافقون .

- ولباساً يرتديه « الماركسيون »^(١) ليدنسوه ، كي يمزق
الحكام ما بقي من خيوطه ، فتقتلع الجذور الباقية ، فلا يجروء
أحد على الجهر بالدعوة إلى الله .

(١) دفع الماركسيون - ولا زالوا - ببعض أعوانهم المجهولة هويتهم الماركسية إلى
التظاهر بالإصلاح الديني ، فالتف حولهم بعض الشباب المخلص الساذج ، =

يقف المجتمع الإسلامي اليوم مذهولاً من كثرة الأصوات التي تناديه ، يحاول :

* تحديد المعالم فيعجز فكره .

* وتمييز الأصوات فيكل سمعه .

* ورؤية ملامح حاملي أعلام « الأيديولوجيات » فينقلب إليه بصره خاسئاً وهو حسير . وفي لحظة يأس يبحث عن الداعين إلى المبادئ ، التي جربها في الماضي ، فأسعدته وأعزته فيراهم ، ولكن نفسه تنفر من كثير منهم ، لأنهم :

* يتحدثون بلغة لا يفهمها ، وأسلوب لا يتفق وطبيعة العصر .

* ويرفضون استعمال أساليب الاعلام الحديثة - كالمسرحيات والأفلام وغيرهما من أنواع الفن الأخرى^(١) - في الدعوة إلى الله ،

= وسرعان ما استغلوا سذاجتهم وحميتهم الإسلامية ، فدفعوهم إلى ارتكاب حماقات لا يقرها الإسلام . . . فانتكست الدعوة المرة تلو الأخرى وذلك أسلوب يتبعه الماركسيون للقضاء على خصومهم .

(١) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتمخضها عن انقسام العالم إلى معسكرين متقابلين أحدهما شيوعي والآخر رأسمالي ، رأى المسئولون في المجتمع الغربي أن من أنجح الوسائل في صد التيار الشيوعي عن الشباب ، توجيه أهل الفن إلى إخراج سلسلة من الأفلام الدينية ، التي توجه الشباب إلى ناحية الدين - بطريق غير مباشر - فأخرج أهل الفن أفلاماً دينية يضرب بها المثل في عالم الفن سواء من حيث الفكرة أو من حيث الإخراج أو من حيث التكلفة ، وكانت الكنيسة تدعم هذا الاتجاه ، لأنها رأت فيها وسيلة عصرية ناجحة لتعميق الروح الدينية في المجتمع .

فتركوا هذا المجال - وهو مجال خصب ، بل إنه إحدى وسائل العصر الحديث الأساسية ، لتعميق العقائد في المجتمع - لأصحاب التيارات والمذاهب المناهضة للدين .

* لم يدرسوا المذاهب الالحادية المعاصرة للرد عليها ، فجاء حديثهم عنها - ان استطاعوا الحديث - منفراً للشباب المثقف ، بل سلاحاً في يد الداعين إلى الإلحاد .

* وأهملوا دراسة التيارات السياسية العالمية ، ومقتضيات العصر على الصعيد الدولي ، فأبعدوا عن ساحة اتخاذ القرارات ، التي تحدد مصير الأمة فاهتر مركزهم كمصدر للتوجيه في المجتمع .

* يعيشون عيشة لا تليق بكرامة الداعية ، فاهملهم في ملبسهم ومسكنهم كان - ولا زال - سبباً في اتخاذهم أضحوكة في المجالس والمنتديات ، وشخصية فكاهية لإضحاك المشاهدين في الأفلام والتمثيلات .

وإزاء هذه الظروف التي يمر بها المجتمع الإسلامي ، يجب على المعاهد التي تخرج الدعاة ، أن تعيد النظر في اختيار دعاة المستقبل فتأخذ في الاعتبار - بجانب الناحية الروحية - حسن المظهر ورتابة الملابس ودبلوماسية السلوك وأن تعدل مناهجها ، فتدخل فيها من المواد :

* ما يهيء الداعية لمواجهة « الايديولوجيات » الحديثة ، ولن يكون ذلك إلا بدراسة جوانبها الفلسفية والتطبيقية .

* وما يجعله قادراً على شرح الإسلام بلغة العصر في جميع المحافل ، سواء كانت دولية أو محلية .

* وأخيراً أن تكفل له مستوى مادياً يساعده على الظهور في المجتمع بمظهر لائق .

والله الهادي إلى سواء السبيل

ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً



أهم مراجع البحث

- أفيون الشعوب : الأستاذ عباس العقاد .
- ذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد : الأستاذ محمد مبارك .
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : الأستاذ الدكتور محمد البهي .
- تهافت الفكر المادي التاريخي : الأستاذ الدكتور محمد البهي .
- الرد الجميل للإمام الغزالي : تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمي .
- الرسالة الخالدة : الأستاذ عبد الرحمن عزام .
- تجديد المذاهب الفلسفية والكلامية : الدكتور محمد عاطف العراقي .
- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، (دكتور هنتر ميد) : ترجمة الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا .
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : الأستاذ الدكتور علي سامي النشار .
- الله في الفلسفة الحديثة ، لـ « جيمس كولنتر » : ترجمة فؤاد كامل .

- الله والكون : الدكتور محمد جمال الدين الفندي .
- الإسلام قوة الغد العالمية ، لـ « باول شمتر » : ترجمة الدكتور محمد شامة .
- حقائق عن نظام الحكم الشيوعي ، لـ « فولف جانج ليونهارد » : ترجمة الدكتور محمد شامة .
- بين الإسلام والمسيحية ، (كتاب أبي عبيدة الخزرجي) : تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة .

Menschin, Die Religion.

W. Leonhard Die Revalution entlässt ihre Kinder.

Mensching, Soziologie der Religion.

Tiele: Einleitung in der Religionswissenschaft.

Carsten colpe : handbuch der Religionsgeschichte.

